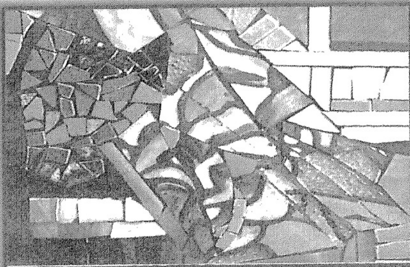
الهيئة العامة لقصور الثقافة



أشياء تخصنا



خيرى شلبى



أصوات أدبيـــة

343

إهـــــــداء2006
ورثة الكيمياني/ محمد فاروق الفران
الإسكندرية

أَشياءٌ تَخُصُّنَا



* أشياء تخصنا
* قصص : خيرى شلبى
(343)
* تصميم الغلاف : محمد بغدادى
* لوحة الغلاف : احمد عبد الفتاح حسين
* المراجعة اللغوية : عادل سميح
* الطبعة الأولى : ديسمبر ٢٠٠٣
* رقم الإيداع : ٢٠٠٣/١٩٨٧٦
الترقيم الدولى :
I.S.B.N: 977 - 305 - 626 - 0
* المراسلات باسم مدير التحرير
على العنوان التالى
١٦ أ ش أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى : ١١٥٦١

الشركة الدولية للطباعة والنشر
ت : ٨٣٣٨٢٤٠

أَشياءٌ تَخُصُّنَا

خيرى شلبى



(قصص)



(343)

أصوات أدبية

مخالصة

إلى المجهولين من عمال التراحيل .. أولئك الذين زرعوا فى قلبى الصغير الغض حب الحكايات .. علمونى فلسفة أدب الحكى باعتباره وسيلة مثلى للتعارف على جسر من الحميمية والأريحية حيث يقوم التواصل الإنسانى فى أجلا صوره وأغناها .. هأنذا أرد لكم بعض ما فى مطاميرى من حصاد .

خيرى

أشياء تخصنا

يا ربى !.. الرحلة من بدايتها كانت ناجحة جدا ، وممتعة ، ربما هى أمتع رحلة صحفية قمت بها فى حياتى ، على كثرة ما قمت به من رحلات فى الخارج والداخل . كل الرحلات السابقة مارستها كمراقب يهمه أن يجد فى النهاية ما يكتبه للقراء من أشياء مثيرة مفيدة معا ؛ أما هذه الرحلة فقد عشتها بمعنى الكلمة ، انغمست فيها حتى النخاع إذ نجحت فى خلع شخصية الصحفى الفضولى وإلقائها فى البحر قبل أن نغادر ميناء الإسكندرية . المناسبة نفسها كانت سعيدة بقدر ما هى مزدوجة ؛ ذلك أن السفينة التى أبحرنا عليها - السفينة عايدة - كانت سفينة شحن لنقل البضائع ، وكانت تقوم برحلتها العذراء أى أنها تبحر لأول مرة ؛ ولهذا تفضلت شركة الملاحة

البحرية بدعوتى كصحفى لمرافقة السفينة عايدة فى رحلتها العذراء لكى تستفيد الشركة من ملاحظاتى التى سأكتبها بعد العودة ، وتضمنت بطاقة الدعوة برنامج السفينة فى خط سيرها فى أعالى البحار ، حيث يتعين عليها إقامة حفل فى كل ميناء من الموانئ المدرجة فى خط سيرها المقرر سلفا حسب تعاقدات على تعتيق أو شحن ، يدعى إلى الحفل عمدة المدينة ووجوهها وكبار المسئولين فى الميناء . .

هذا فى حد ذاته إغراء كاف لقبول الدعوة . ومن جانبى كان هناك ظرف شخصى خاص يجعل من هذه الدعوة - أيا كان مستواها - حلما من الأحلام ؛ ذلك أننى وقد جاوزت الأربعين من العمر أعزب مضربا عن الزواج خشية أن يقيدنى بعيال يحدّون من حريتى ومن رغبتى الدائمة فى الارتحال فوجئت بأننى قد أحببت دون أية مقدمات ، إذ وقعت أسيرا فى عينى فتاة تصغرنى بعشرين عاما من أول نظرة لها صافحت عينى يوم أن التقيتها فى مكتب الأستاذ رضا المنجى رئيس تحرير مجلة العصر الفنية التى أعمل بها ، حيث

قدمنى لها بحاشية من التفخيم أخجلت تواضعى ، وقدمها لى بتلطف حانٍ ، واصفا إياها بأنها مصورة موهوبة التحقت بالمجلة حديثا تحت التمرين ؛ أوصانى برجاء خاص أن أجرب «شغلها» فى موضوعاتى وتحقيقاتى التى يعتبرها اختبارًا حقيقيًا لموهبة المصور ؛فكان لابد لى من أن أجرب فى الحال حيث كنت فى الواقع قد دخلت فى عينين مثل كوخين تفتحهما الشمس على حقول خضراء . اصطحبتها فى عدة موضوعات أثبتت خلالها - إلى قدرتها على التصوير بحساسية فائقة- جدارتها بأن تكون زوجا لى وأن تحولنى من مضرب عن الزواج باقتناع عقلانى إلى متلهف عليه باندفاع عاطفى ؛ سيما وأنها كانت بلا أى شروط تقليدية بل كانت لا تفكر فى الولد بقدر ما تريد إشباع رغبتها فى الانطلاق لمشاهدة العالم ، فما كادت الأشهر الستة المقررة للاختبار تنتهى حتى كنا زوجين سعيدين فى اتساق وتكامل وتفاهم ؛ وإنه لمن حسن الطالع أن أتلقى هذه الدعوة الكريمة فعلا فى اللحظة التى كنا نفكر فى كيفية قضاء

شهر العسل . وحينما تقدمت لرئيسى بمشروع السفر لكى يعتمده كسفرية خاصة بالعمل جرى بصره على سطوره فرأى أننى سوف أصطحب عروسى سناء البحراوى فى الرحلة كمصورة ؛ فابتسم فى أريحية وقال إنه سيوافق بشرط أن ألبى رغبته فى اصطحاب زميل محرر كان قد وعده بسفرية للخارج تشجيعا لمواهبه ومكافأة له على جده فى العمل . من حسن الحظ أن الزميل الذى اقترحه كان إينال عبد الغنى ، وهو محرر أدبى يصغرنى بأكثر من عشر سنوات ، وأنا من أشد المعجبين بقلمه وذوقه وأدبه وكريم أخلاقه كفلاح رقيق صريح وشهم .

لو كانت الرحلة فى سفينة ركاب ما وفرت شيئا من المتعة ؛ لأنك فيها ما تكاد تتعرف على المرافقين حتى يهبطوا فى موانئ قادمة فهى سامر ما يكاد ينتصب حتى ينفض . أما سفينة البضائع فإنها أسرة واحدة بطاقم ثابت على السفينة لا يتغير ولا يتبدل طول الرحلة مما يولد الدفء والتضامن والتطامن والحميمية ، كما أن سفينة البضائع تمكث فى

الميناء عدة أيام ربما وصلت إلى أسبوعين أحيانا فى شحن وتعتيق أو فى انتظار مكان ملائم على رصيف الميناء ، مما يتيح لنا تجوالا فى مدن الموانئ وربما السفر بالقطار أو بالطائرة إلى مدن مجاورة ثم العودة إلى الميناء قبل إقلاع السفينة ولو بساعات قليلة . .

هذا بالضبط ما فعلناه ثلاثتنا : سناء البحراوى وإينال عبد الغنى وأنا : حسين مخلوف الفرنوانى . غربلنا موانئ الخط ، استخدمنا بطاقاتنا الصحفية فى تذليل العقبات وتيسير الانتقال داخل دولة الميناء من بلد إلى بلد ، غصنا فى الحوارى الضيقة وجلسنا على مقاعد بدائية فى مقاه وبارات وأندية تنتمى إلى القرون الوسطى فى مالطة وقبرص وإسبانيا ، زرنا متاحف ومسارح وأماكن موصوفة للسياح ، أجرينا أحاديث وحوارات مع ألوان شتى من المسئولين والفنانين والبشر العاديين ، صورنا الطبيعة فى البحر وفى الغابات والأحراش كما صورنا الحياة فى أحياء آيلة للسقوط فى أحشاء مدن ذات ثقل تاريخى رنان ؛ ولأن إينال عبد الغنى قارئ جيد للأدب الأوربى ، فإن

ذاكرته كانت تحمل الكثير من الشوارع والمنشآت والمعلومات والشخصيات التى التقاها فى القصص والروايات والمسرحيات مما جعل الكثير من زياراتنا تستضاء بخلفيات تاريخية واجتماعية مفيدة جدا وممتعة .

كنا مدللين على السفينة كأن أمهاتنا قد دعون لنا فى ليلة قدر ؛ فنحن الثلاثة فقط نسمى على السفينة بالركاب ؛ ذلك أن كل فرد فى طاقم السفينة البالغ عدده أربعين فردا له وظيفة محددة من الفراشين إلى النجارين والبحرية والضباط والمهندسين والإداريين والطباخين والسفرجية . . إلخ ، وهم يتنادون بألقابهم لا بأسمائهم وبما أنهم أبناء بحر متودكين فقد اعتبر كل واحد منهم نفسه مسئولا عن سلامتنا وأمزجتنا ؛ فكل طلباتنا مجابة وفى الحال ، ومائدتنا فى صالون الطعام فى الوجبات الثلاث الإجبارية يشرف عليها رئيس المطبخ بنفسه ، ويزود ثلاجات غرفنا بمأكولات معلبة لزوم الاحتياط للجوع الذى يسببه البحر فيما بين الوجبات أو فى الهزيع الأخير من الليل ؛ أما

المشروبات الروحية بجميع أنواعها وأشهر ماركاتها فحدث ولا حرج ؛ وأما خراطيش السجائر الأجنبية فتهدى إلينا مثل سيجارة عابرة . ولأننا الوحيدون الذين يسمون بالركاب على سفينة جهزت غرفها على مقاس شاغليها من أفراد الطاقم لذا فقد أنزولنا فى كابينة «الأونر» ، يعنى مالك السفينة ، وهى كابينة موجودة فى كل سفينة حتى وإن كانت ملكا للقطاع العام كالسفينة عايدة ، كما أنها كابينة غير عادية : هى ثلاث غرف يُفترض أن المالك ربما يشغلها بزوجه وعياله فى إحدى الرحلات ، تفتح على بهو مجهز للاستقبال وإقامة الحفلات . نزلت أنا وسناء فى غرفتين متصلتين بباب داخلى ونزل إينال عبد الغنى فى الغرفة المقفلة والمطلة على البهو المفروش بمقاعد وأبسطة فخمة . .

حفلات كثيرة جدا أقمناها أو أقيمت على شرفنا فى هذه الردهة . إن رجال البحر العاملين فى أعالى البحار ، أولئك الذين يمكثون فى البحر أشهرا طويلة بعيدا عن أوطانهم وعيالها وأحبائهم ومهود ذكرياتهم

لايجدون فى البحر وسيلة للتنفيس ودرء السأم سوى الحفلات ، يخترعون الطريقة التى تضاف إلى أعياد ميلادهم وميلاد عيالهم وأعياد زواجهم ، أحيانا بمناسبة رؤية فى المنام رآها معلم البحرية واستبشر بها خيرا ، وكل من يدعو لحفل يتحمل مشاريبه وسجائره ومأكولاته الأولية ، وما إن يبدأ الحفل حتى تنهال الهدايا من الجميع ، وتكثر الحفلات عند رمى المخطاف فى عرض البحر إما انتظارا للمرشد - «البايلوت» - الذى يتولى قيادة السفينة للعبور بها من هذه المنطقة أو تلك من المناطق الخطرة ، وإما انتظارا فى المياه الإقليمية حتى ينتهى الميناء من إخلاء مكان للسفينة على رصيفه . يا إلهى كم هى بديعة ومؤثرة هذه الاحتفالات البحرية التى يقيمها المصريون والأفارقة بوجه عام على ظهور السفن الشاحنة ، خلالها يكتشف الواحد منا أن مصر واسعة بحجم الكون وأنها ملآنة بمواهب نادرة وغريبة وفريدة فى أمور شتى ، وتشع إنسانية وعطاء . لهفى على غنائهم فى هذه الحفلات ؛ ليس لحلاوة الصوت أو

قوة الحنجرة أى اعتبار هاهنا رغم توفرهما ، إنما حلاوة الحس أعظم وأفعل فى الإحساس . لله ما أروع الأصوات غير المحترفة وهى تغنى فى الغربة نفس أغنياتنا المتداولة فى المذياع والتلفاز ليل نهار إلا أنها على أصواتهم تقطر حرارة وعذوبة حيث تصير البهجة من فرطها بكاء والبكاء فرط ابتهاج وسرور . ثم ما كل هذه المواهب فى الرقص البلدى الرجولى الذى يزيل جبال الألم ويبدد كوابيس الهموم والأحزان ، وفى العزف على آلات موسيقية تظهر فجأة ، والنقر على الدربكة المصرية المشعللة التى إن أرادت رقصت الكواكب المطلة فى خفر على عرض البحر فى الليالى التريكوازية المفعمة بالحنين الصارخ .

هكذا من متعة إلى متع ، من ميناء إلى موانئ ، من مدينة إلى مدائن وصلت السفينة عايدة إلى آخر ميناء فى خط سيرها . كنا قد عبرنا المتوسط إلى بحر الشمال الإنجليزى إلى الكيل كنال الألمانى فبحر البلطيق الذى اخترقناه إلى هذا الميناء الأخير الذى كان ضمن حدود ألمانيا الشرقية قبل توحيد

الألمانيتين . وكانت إحدى شركات القطاع العام المصرى المتخصصة فى تسويق الشحن لحساب السفن المصرية - ولها مكاتب ومندوبون فى معظم الموانئ العالمية - قد تعاقدت على شحنات ستحملها السفينة عايدة إلى القاهرة رأسًا ؛ فكان على السفينة أن تبقى فى الميناء ما يقرب من عشرة أيام يتم خلالها استقبال شحنات من بضائع متنوعة يجرى تستيفها بشكل هندسى يحفظ للسفينة توازنها . . وهذا معناه أننا سنمرح فى المدينة وقتا طيبا . .

المدينة تبدو صغيرة لكنها مثل صندوق سحرى ونحن فيه كثلاث بليات تتدحرج بين أركانه فنرى الشىء الواحد عدة مرات بأشكال مختلفة ونشعر بها شعورا مختلفا ، إلا أنها من فرط حميميتها أعطتنا الإحساس بأنها دارنا التى وُعد بها المتقون فى الجنة ، ففى كل مبنى حديقة باسقة يمرح فيها أطفال شقر كالملائكة ، والشوارع نظيفة لامعة كالمرايا ، ونساء متوردات يخطرن فى رشاقة كأنهن بنات الحور . المبانى تكاد تكون كائنات إنسانية بديعة التكوين فى

أشكال وألوان غاية فى الرصانة ، فكأن المدينة مبنية لتقيم فيها عائلة واحدة متعددة البطون والأفرع . هى مدينة تفتح لك أبوابها لا لكى تمرح فيها كيفما شئت وإنما لتعلمك الأدب ورصانة السلوك واحترام هيبتها، خاصة وأنت تتهجى لافتات نحاسية مهيبة على بعض البنايات تخبرك بأن وجوها من عمالقة الأدب والموسيقى مثل جيته وفاجنر عاشوا فى هذه البيوت واتخذوا من هذه المدينة - واسمها ويزمار - منتجعا يخلدون فيه إلى التفكير والإبداع . على أن هذه الهيبة العتيقة الراسخة تبدأ فى الاهتزاز كلما اقتربت من حدود الميناء بحواريه الجانبية ورأيت العديد من عاهرات ذوات جمال تعيس يجلسن على عتبات البيوت شبه عاريات ينادينك فى صراحة ووضوح وخفة ظل إذ ينطقن بمفردات يتوقعن أن تكون من لغتك ، وهى غالبا ستكون كذلك ، مما يشى بأنهن قد أدركن بالتجربة الطويلة أن لغات البشر تشبه وجوههم وسحنهم . .

أسلمتنا المدينة إلى غابة مترامية الأطراف لا نهاية

لها ، تبدو كالبحر المحيط بأمواج كسحب خضراء مورقة تتماوج فوق عمد شاهقة من جذوع شجر ونخيل ؛ طرق مرصوفة تشق أرضها وعرضها كأشرطة من ضوء إردوازى تتقاطع فى أشكال هندسية . الحياة تجرى بين الأشجار فى سلامة مبرأة من كل عدوان يثيره متطفل حاقد ، ومن أين يجيء الحقد و التطفل إذا كان مباحا للجميع هاهنا أن يسلكوا بمحض حريتهم حيث لا قهر إلا لسيادة القانون الذى يفرض نظاما والتزامات لا يحيد عنهما كبير أو صغير، مثقف أو دهماء ؛ شبان يمارسون العشق فى وضح النهار كالعصافير الطليقة ككل الكائنات غير الإنسانية لا يحكمها سوى قانون الطبيعة والوجود الحى . .

كنا قد نجحنا حتى الآن فى تحييد مشاعرنا الشرقية وتقاليدنا العربية المتزمتة حتى لا يبدو علينا أى لون من النفور أو الرفض أو الاشمئناط ؛ نظرا لاختلاف التقاليد والعقائد والعادات ووجهات النظر للحياة ، هم أحرار يمارسون حياتهم كيفما شاءوا ونحن كذلك أحرار فى أن نجاريهم أو لا نقتنع

بسلوكهم شرط ألاّ نبدى اعتراضا ، ألاّ نتدخل فى شئونهم تطفلا أو استهجانا . هذا ما كنت أهجس به دائما لسناء وإينال باعتبارهما يحتكان بالمجتمع الأوربى لأول مرة فى حياتهما ، وخاصة أنهما كانا أسرع من بعضهما فى الحملقة المذهولة والعبّ من المشاهد بفضول لا ينتهى ولا يخمد له أوار . كنت على يقين بأنهما يستنكران ما يريانه ، حيث يبدو لى فى كثير من الأحيان كأنهما يشاهدان مخلوقات من كوكب آخر تتشابه معنا فى البشرية إلا أنها لا تمت لنا بصلة ولا يمكن أن تقوم بيننا وبينها علاقات إنسانية ، هو نفس ما كنت أشعر به فى بداية اتصالى بالمجتمعات الأوربية إلى أن اكتشفت بطول التجربة أننا وهم كائن إنسانى واحد بوجوه متعددة وحيوات متباينة وعقائد مختلفة لا يفسد اختلافها للود قضية . لكن ما أدهشنى فى هذا الميناء هو اكتشافى أن سناء وإينال عبد الغنى وصلا إلى حالة من التماهى مع هذا المجتمع والابتهاج من أوضاعه بغض النظر - مؤقتا - عما إذا كانت هذه الأوضاع مقبولة أو هى من قبيل الضلال والانحلال . .

فيما كنا نتسكع بين الأشجار الوارفة كانت الشمس المخضوضرة تنسكب على فروع الشجر كأن السماء تمطر خمرًا وتصنع فوق العشب بحيرات صغيرة من الويسكى والكونياك ، من فرط لمعانه يبدو سائلا متموجا فإذ ندوس فوقها يصعد ضوؤها يتسلق أقدامنا وأطراف سراويلنا ثم يلبث حتى ينسحب عنها فى الخطوة التالية . على مشارف البصر شاهدنا كدية من الورود بألوان مبهجة وروائح عطرية منعشة وكانت تتماوج من بعيد كأن ريحا تنفذ من تحتها فترفع أوراقها وغصونها تهفهفها . تلقائيا توجهنا نحوها ، فلما اقتربنا منها سمعنا لها أصواتا تشبه أصوات البشر ؛ فلما ازددنا اقترابا تبين لنا أنهم بشر مثلنا : كوكبة من الفتيات والفتيان يتربعون فوق العشب ، يتحلقون ركية نار فى حفرة قوامها حطب مشتعل ، وفوق النار غلاى نحاسى كبير ذو ملامح بزخارف شرقية عريقة تتصاعد منه رائحة قهوة طازجة . .

ألقينا عليهم التحية بالإنجليزية ، فهللوا فى ترحيب بنزق جنونى جميل ، أشاروا لنا بأن نتفضل

فنشاركهم جلستهم هذه المرحة النزقة الرصينة فى آن . فى الحال صرنا صغارًا مثلهم بل أصغر منهم ، جلسنا حيث وسعوا لنا قوسا اندمج بنا فى قوس الدائرة . أمسك أحدهم بالغلاى ، صب لنا فى الفناجين جرعات من القهوة قدمها لنا فى بشاشة شكرناه عليها ببشاشة مصرية أكثر حرارة وأريحية ، فلما رشفنا معا تلاقت أنظار ثلاثتنا على اكتشاف طعم لم نكن نتوقعه ؛ ذلك أن القهوة مخلوطة بمشروب روحى لعله الكونياك أو البراندى أو النبيذ . فى لمحة خاطفة التقت نظراتنا على تفويت الأمر والاستغراق فى التجربة . غير أن هذا المشروب لم يكن وحده ؛ إنما فوجئنا بوجود أكثر من غليون كبير بمباسم فى طول الذراع تنتقل بين الأعضاء ، يمسكه الواحد منهم ويعض على المبسم بشفتيه ساحبا أنفاسا من الدخان ينفثها من منخريه رمادية اللون كثيفة عطرية الرائحة . كان من السهل علينا كمصريين اكتشاف نكهة الحشيش فى غليون والأفيون فى غليون آخر . للمرة الثانية تلاقت نظرات ثلاثتنا من تحت لتحت على تفويت هذا

الأمر أيضا ، وهكذا فوجئت بأن سناء تشفط الدخان بقوة وحرارة وتنفثه من منخريها مثل كيِّف قرارى ، وكذلك إينال عبد الغنى ، أما أنا فخطفت أنفاسا سطحية فيما رحت أعرف الشبان بنا وبمهمتنا الصحفية على السفينة عايدة . قدموا لنا أنفسهم واحدا بعد الآخر فإذا هم خليط من طلبة وعمال اعتادوا قضاء الإجازة الأسبوعية على هذا النحو . الجميل - كما استطعت أن أستخلص من حوارهم الخاطف - أنهم تلاقوا هاهنا دون معرفة سابقة ، وأنهم كانوا فى البداية واحدا ثم أصبح يتزايد أسبوعيا حتى تكونت هذه المجموعة وتألفت . .

رغم أن البحر كان بعيدا فإنه كان مرئيا على البعد من خلل الأشجار ، وكنا نسمع هسيس الموج وخرخشة المياه عند تلاطمها بالشاطئ الدائرى الحجرى ، صوت تكسرها أقرب إلى صوت قرقشة السكر تحت أسنان حيوان خرافى . رائحة اليود النفاذة تفوح بقوة طاغية ، هاهو ذا أحد الفتية قد عاد بعد اختفاء ملحوظ ، وضع فى وسطنا طاولة من الصاج

كان يمسكها بمنديلين من الورق إذ هى ملتهبة ، ترتص فوقها أرهاط من السمك البورى المشوى زينت بأنصاف ليمونات . سرعان ما وصل شاب آخر يحمل تلاً من علب وملاعق مصنوعة من البلاستيك ، وزعها علينا ؛ كل واحد علبة وملعقة فإذا هى ملآنة بالأرز وفوقه كيس بلاستيكى ملآن بالسلاطة الخضراء . المفاجأة كانت عظيمة بلاشك ، ودلتنا الشواهد والكلمات العابرة أن هذا طقسهم المعتاد أسبوعيا ، وأن الغابة التى تبدو لنا مجرد أشجار كثيفة تتخللها طرق مرصوفة كالحرير ، تكمن فى أحشائها وربما تحت أرضها محلات ومطاعم للأسماك يؤمها السياح ، ولك أن تشترى السمك بنفسك من على الشاطئ - كما يفعل هؤلاء الفتيان - وتذهب إلى محل ينظفه ويتبله ويشويه أو يقليه أو يطبخه حسبما تريد ، نظير أجر لا يذكر . .

إن هى إلا دقائق بعد الأكل واستئناف الشرب حتى صرنا كالنوارس ترتفع من بحر الأرض إلى بحر السماء ثم نحلق ثم نرتد لنرتفع . صرنا فى درجة

عالية من الشفافية والصفاء ، زالت من بيننا بطاقات الهوية والجنسية ، لم يعد للغة أية قيمة على الإطلاق فكل شيء بيننا واصل وسهل إلى أبعد الحدود ، بل اكتشفنا أن اللغة كانت عائقا بيننا فى بداية الجلسة فلما اندمجنا نسيناها تماما ، صارت الخواطر واللمحات والمعانى تعبر من عين إلى عين مدعومة بقليل جدا من إشارات الأيدى ، بل صرنا ثلاثتنا نقول نكتا مصرية حريفة فإذا بها تضحكهم من الأعماق كأنهم فهموا حتى ظلالها البيئية المحلية ، ويقولون نكاتا بالألمانية تغرقنا كذلك فى الضحك من طريقة إلقائها . فى غمرة البهجة أطل علينا قرص الشمس كفحل الرمان تتفتق خدوده القرمزية عن بثور لؤلؤية مكتنزة باللهب ، وبدا كأنه يبحث بين الأشجار عن ظل يبترد به ، فراح يتسلل من تحت السحب الخضراء وينفقش كالبيضة ويسيح صفاره الداكن فوق الأرض والجذوع وفوقنا . .

لحظتئذ انبعث صوت نغم شجى حاد كأنه يحفر فى مشاعرنا نقوشا فرعونية ، فإذا هو كالخطاف يشدنا

نحن الثلاثة دفعة واحدة كما لو كنا أطفالا استغرقهم اللهو واللعب ثم سمعوا صوت أمهم يناديهم فانخطفوا إليها لاهثين شاعرين بالذنب . .

انتبهنا بقوة وتركيز ، شحبت وجوهنا لبرهة، فانتبه الفتيان لذلك وفهموا أن هذا الصوت قد فصل بيننا بعد اندماج تام فراحوا ينصتون معنا بنفس القوة فى التركيز لعلهم يستكشفون سر هذه الخضة التى أصابتنا . الصوت لآلة موسيقية حميمة جدا بالنسبة لنا كمصريين ، يجىء من مكان ما فى هذه الغابة الشاسعة، يتقارب حتى كأنه صادر من قعدتنا ، ويتباعد حتى كأنه يسافر فى السماء ، لكنه فى الحالين واضح شديد الوضوح ، حاد قوى الحدة ، رهيب الإيقاع يبعث فى الفؤاد حرارة بهيجة وحرقة حميمة يقشعر منها البدن . مع ذلك لم نستطع تحديد هذه الآلة الموسيقية بدقة ؛ إلا أن إينال عبد الغنى كان أول من انتفض واقفا وقد بدا عليه سمت الطفل التائه أفاق فجأة على شعور بالغربة . ثم وقفت سناء وقد انفعلت واحمر وجهها صار توأما لقرص الشمس . قال إينال :

-«أظن أنه المزمار البلدى . . العفاطة الصعيدية القصيرة !»

قالت سناء :

- «أمى من مرسى مطروح وأنا أعرف أن هذه الآلة هى قطمة البوص التى يتفنن فى صنعها والنفخ فيها أهالينا فى مرسى مطروح والواحات وسيناء !»

قلت لهما :

-«يخيل لى أنها رباب !»

قال أحد الفتيان فى ثقة :

- «ذى هى الهارمونيكا!»

قالت فتاة فى لون القطايف المقلية :

- «هذه هى القيثارة !»

هز إينال رأسه فى شبه تأييد :

- «ربما ! احتمال كبير أن تكون هى القيثارة الفرعونية التى تطورت فى إسبانيا وأوربا !»

قال الذى كان قد أتى بالسمك :

- «يوجد اليوم جهاز كالأورج مثلا فيه
كل أصوات هذه الآلات والعازف يتنقل
بينها ليعزف نفس المقطوعة ! وهذا يتم
هنا بشكل يومى منذ سنين ولا نعرف من
هو ولا فى أى مكان يوجد !»
وقال آخر :
-«ليس يوجد هنا ملاهٍ ! والذين يسرحون
فى الشوارع والحدائق والبارات لا يعرفون
مثل هذه المعزوفات الشرقية !»
قالت سناء للفتيان :
- «هل سمعتم هذه المقطوعة من قبل ؟»
- «كثير جدا . . ونحب الاستماع إليها !»
هكذا قالت ذات الوجه القطائفى . وصاح إينال
فيما يقرب من أن يكون توترا :
- «أيًا ما كانت الآلة فإن ما يهمنى الآن
هو أنها تتكلم بالمصرى ! هذه أغنية
فولكلورية مصرية صميمة أعرفها حق
المعرفة وهى حميمة جدا جدا بالنسبة

لى !»

أومأت سناء برأسها :

- «ولى أنا أيضا ! إنها داخلة فى نخاع نسيجى !»

قلت لهما إننى وإن كنت من أصل سكندرى فإننى أتعرف على هذا اللحن ، أكاد أنطق كلماته لكن ذاكرتى ليست تريد أن تسعفنى ، وأخذت أعصر جبهتى محاولا الإمساك بكلمات هذه الأغنية التى راحت تتخايل وتبرق فى رأسى كالكريات الزجاجية ما تكاد تظهر حتى تختفى . عندئذ هتفت سناء :

- «إنها . . يا بهية وخبرينى يا بوى ع اللى قتل ياسين !»

لوى إينال شفتيه بغير اقتناع . طرقعت أنا بأصابعى مندفعا مع خاطر خادع :

-«هى أغنية ياوابور الساعه اتناشر يا مقبِّل ع الصعيد !»

وكان إينال قد انخرط فى تفكير عميق اتسعت له عيناه وضوعفت أحجام ملامحه فبدا كقط بلدى يتحفز

للقفز إلى علو شاهق ، يصدر من حلقه ترنيمات خافتة غير واضحة . ورحت أنا أدندن بأنغام قد تستدر أنغاما من نفس العائلة النغمية لعلها تذكرنى بكلمات هذا اللحن الذى كنا نغنيه فى الشوارع ونحن أطفال :

- «البنت بيضه بيضه بيضا . . البنت بيضا
وأنا أعمل إيه . . يا ولدى يا ولدى أنا
حبيت . . وبنار الغيره انكويت !»

ولكن دون جدوى . .

وأخيرا كان لابد أن ننصرف عائدين إلى السفينة بعد ، إذ دخل الليل واستضافت الغابة أقباسا من ضوء الطرقات والمدينة المتلألئة من بعيد كلوحة بألوان الباستيل ، ثم إن الشلة صافحتنا متمنية لنا حظًا سعيدا ومضوا . خفنا أن نتوه فى الغابة فقفلنا عائدين نقتفى أثر الشلة حتى اهتدينا إلى طريق الميناء . .

طوال الطريق لذنا جميعا بالصمت العميق كأن شاغلا مروعا قد طرأ علينا ليحتل أدمغتنا . كنت واثقا أن إينال وسناء يعصران ذاكرتيهما للتعرف على أصل هذا اللحن الفولكلورى المصرى الذى لا تزال أصداؤه

تتردد فى صدورنا . رغم يقينى من أن اللحن فولكلوى قديم فإنه يذكرنى بألحان كثيرة حديثة تشبهه إلى حد كبير وإن لم تكن هو ، وقد وقر فى ذهنى أننى لو تتبعت أشباهه من الألحان الحديثة فربما أوصلتنى إليه بالتداعيات النغمية ، انفتح فى ذاكرتى سيل من الأغنيات الشعبية التى شكلت وجداننا فى الطفولة والصبا إبان انتشار أجهزة الراديو على نطاق شعبى واسع : يابو العيون السود ياللى جمالك زين ؟ .. يا حلو ناديلى وشوف مناديلى ؟ .. ع الحلوه والمره مش كنا متعاهدين ؟ .. مين السبب فى الحب القلب ولا العين ؟ .. مبروك عليك يا معجبانى يا غالى عروستك الحلوه قمر بيلالى ؟ .. طلعت يا محلا نورها شمس الشموسة ؟ .. يا عشاق النبى صلوا على جماله ؟ .. عوف الأصيل ؟ .. على بلد المحبوب ودينى ؟ .. ياليلة العيد أنستينا ؟ .. تراعينى قيراط أراعيك قيراطين وتشوفنى بعين أشوفك باتنين ؟ .. أنا والنجوم صاحيين والبدر راعينا ؟ .. شفت حبيبى وفرحت معاه دا الوصل جميل حلو

يا محلاه ؟ . . فاكراك ومش حانساك مهما الزمن قساك ولاّ نسيت حبى وان رحت مرة تزور عش الهوى المهجور سلم على قلبى ؟ . . يا شمعدان حارتنا يا منور حينا ؟ . . برهوم حاكينا ؟ . . سماح يا أهل السماح لوم الهوى جارح ؟ . . رايداك والنبى ريداك؟ . . لامونى ؟ . . إن كنت ناسى أفكرك ؟ . . حاسدينى على حبك ليه؟ . . غنى لى شوى شوى ؟ . . فى نور محياك ؟

. . . .

صار جسدى يهتز ؛ شعرت بيد تداعب ذقنى ، فتحت عينى بصعوبة على صوت سناء ينادينى برفق : «حسين ! حسين ! »، ومدت يدها الأخرى بزجاجة الماء : «خدلك بُق !» . نظرت فى الساعة فإذا بنا فى غبشة الصباح :

- «إيه فيه إيه يا سناء ؟»

- «إنت طول الليل تخطرف طيرت النوم من عينى ! إنت كنت بتحلم إنك مذيع ولا ف حفله؟»

- «ما حلمتش بحاجة فيه إيه ؟»

- «ولا حاجة بس نام وأنت ساكت !»

- «حاضر يا ستى !»

على مائدة الإفطار كان إينال محمر العينين شارد اللب ، وابتسامة مهزولة تتوكأ على شفتيه . قالت سناء :

- « باين عليك ما نمتش كويس يا إينال !»

قال إينال :

- «فعلا يا سناء ! طول الليل باكتب !»

- «طب مش تستنى لما نرجع مصر وتراجع تفاصيل الرحلة كلها ؟»

قلت لها : « جايز بيكتب ملاحظات وده ضرورى جدا زى ما أنا باعمل كده بس فى نوته دايما فى جيبى !»

قال إينال :

- «لا . . أنا كنت باكتب حاجة تانية !»

-« قصة ولا مقال ؟»

- «شبه دراسة ! مشروع دراسة عايز اكتبها لما ارجع مصر على رواقه عشان

اقرأ لها شوية مراجع تاريخية واجتماعية وفنية !»

- «عن إيه يا إينال ؟»

-«موضوعها باختصار : استحالة أن يكون الإنسان عالميا لأنه مطبوع على أن يكون محليا وابن بيئته ! هى على كل حال لم تتبلور بعد بصورة كافية ! لكن تركيزى فيما كتبته من ملاحظات كان على الجوهر الإنسانى للإنسان ! يعنى إيه الجوهر الإنسانى ؟ هذه العبارة التى نرددها باستمرار ، الفكرة التى جاءتنى مساء كانت شبه إجابة على هذا السؤال ! وهى باختصار : إن الجوهر الإنسانى للإنسان هو مجموعة مكوناته البيئية ! الوجدانية والعقائدية والاجتماعية والجغرافية !»

مطت سناء شفتيها ونظرت لى بابتسامة شقية :

- «فاهم حاجة يا حسين ؟»

- «طبعا يا سناء ! كلام إينال واضح جدا أديكى مثل ! افرضى مثلا إن أنا باعتبارى مصرى ومحترف سفر للخارج ودائم الاحتكاك بالمجتمعات الأوربية !هل أقدر أعيش كألمانى ، أمريكانى ، فرنسى ، إنجليزى ، بلچيكى ، سويسرى ، كل ما اروح فى حته من دول ؟ هل من الممكن أن أكون صورة طبق الأصل من الشباب اللى كنا معاهم امبارح لمجرد إنى جيت ألمانيا ؟»

-«ليه لأ ؟»

- «أنا بأقول إن ده صعب ! ممكن أجارى المجتمع اللى أنا ضيف عليه لوقت معين ، لكن أبقى زيهم تمامًا لأ !»

قال إينال :

- «أنا أقول إنه شبه مستحيل ! حتى لو حصلت على الجنسية الألمانية واتجوزت واحدة ألمانية طالما إنك رحت أوربا

وأنت متربى جاهز استحالة إنك تبقى حاجة تانية غير إنك مصرى ! نعم تستطيع أن تتفرنج كما تشاء وأن تصير بروفيسورا فى الجامعة ، لكن ما يطرحه عليك المجتمع الأوربى من تغيير فى اللسان أو فى المظهر أو فى العقلية لن يجعلك أوربيا بل يعمق فيك المفارقات وتصبح كائنا ببغائيا لبقا خفيف الظل ! كما يعمق فيك الشعور بالغربة فضلا عن أنه يقسمك فتصير اثنين بغراء نفسى قابل للتفكك فى كل حين !»

وهنا قالت سناء وهى تعتدل فى مواجهته كأنها سوف تلتقط له صورة فنية :

- «يعنى فكرة أن يبقى فيه إنسان عالمى قادر على الحياة بسهولة فى أى مكان من العالم فكرة مستحيلة ؟!»

- «الإنسان يمكن أن يعيش فى أية دولة يعجبه نظامها ومجتمعاتها ولكنه حينئذ

يكون محض كائن مفرغ من المحتوى الإنسانى ، يعنى ميت القلب متجمد العاطفة فاقدًا للضمير !ففى رأيى أن قيمة الإنسان ترتبط أساسا بما أنجزه قومه من قيم أخلاقية وروحية ! من فنون وآداب تعمق صلة الإنسان بموطنه من حيث هذا الموطن أرض ومناخ وطبيعة خاصة وتاريخ ! إن وطن الإنسان هو شرفه والاعتداء على حرمة الوطن انتهاك لشرف المواطن بالضرورة ، ثم إنه لا ثقافة لا فن لا فكر بغير وطن متجذر فى الأعماق ! قد يوجد علم وبحث علمى متقدم حتى فى الدول الهجين التى تحوى أرهاطًا من جنسيات مختلفة مثل أمريكا أو ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتى الذى كان من أهم أسباب فشله ميوعة الوطن أو تراجع الوطن فى سبيل وهم اسمه الأممية ، هو بعينه الخالق الناطق وهم العولمية أو

الكوكبية التى يروج لها اليوم شيطان جاهل متغطرس اسمه أمريكا ! حقًّا إن العلم عالمى ما فى ذلك شك ، أما الثقافة فمحلية قومية ما فى ذلك شك أيضا ! الثقافة بروافدها الفنية والأدبية هى القوم ! هى جوهر الوطن ! هى زاد للعزة والكرامة والسؤدد ! الإنسان حين يكون متمردا على منظومة التقاليد النابعة من طبيعة وطنه وقومه إذا انتقل إلى مجتمع آخر يتناقض تماما مع مجتمعه الأصلى سوف يتوهم فى بداية الأمر أن المجتمع الجديد أعطاه الحرية ، بقدر ما تناقض مع مجتمعه الأصلى ، لكنه بعد حين سيتضح له أنه ليس متوائما مع المجتمع الجديد بالقدر الذى توهَّمه ! وستبقى أزمته على ما كانت عليه بل ربما زادت . . اللهم إلا إذا نجح بمعجزة خارقة فى أن يفرغ روحه من محتواها الوجدانى القديم الراسخ

يعنى نفسه من جذوره ويبقى شخصا بلا أهل بلا أسرة بلا عواطف بلا إبداع بلا هوية !»

ثم رش الملح على البيضتين المسلوقتين وفركهما داخل كسرة خبز وجعل يقضم ويمضغ مسبلا جفنيه على عينيه مما وشى بأنه يستطعم نكهة الكلام الذى نثره منذ هنيهة . وراحت سناء تتأمله بنظرة تعكس لونا من التقدير ، فبدا على ملامحها كأنها تقول : أخيرا قد فهمتك . ثم صعدنا لنشرب الشاى فوق الكويرته تحت شمس ضحى ألمانى رخو . رغم ابتراد الشاى كان أكثر سخونة من الشمس التى رأيتها غارقة فى أغوار بعيدة من قاع البحر دون أن تخلع ثيابها التى انتفخت بالماء فضاعفت من حجمها ، حتى لتبدو وهى قاعدة فوق سحب السماء ظلا وانعكاسا للمستحمة هذه المعجبانية الشابة أبدا . قلت لسناء :

- «قدامنا يوم واحد نرحل بعده فهل تحبين القيام بجولة فى المحلات هنا ؟»

قالت سناء متحمسة :

- «الأدوات المنزلية هنا تجنن ! ورخيصة جدا شفت مخرطة ملوخية تحفة وتمنها مايجيش فى المقابض بتاعتها ! ولا الشوك والسكاكين والمعالق صناعة راقية !وناخد طقم فناجين وبراريد صينى !»

وقال إينال :

- «أحسن حاجة شفتها هنا المصنوعات الجلدية وخصوصا الأحذية !»

- «طب ما نقوم نتجول !»

- «وهو كذلك !»

فرحتنا بالمشتريات الجميلة وأسعارها المنخفضة قد أنعشتنا وهيأت مزاجنا لعصرية نستكشف خلالها ما لم نره من ضواحى المدينة ، فاتفقنا على النزول بعد تمديدة على الأسرة عقب الغداء ، ولكننى حين صحوت بعد ساعة طلبت إينال فلم أجده فى غرفته ، فراهنتنى سناء على أنه ذهب وحده إلى الغابة ؛ وبالفعل كسبت الرهان ، حيث تجولنا سويا داخل

المدينة بحثا عن أشياء ثمينة نادرة يمكن أن نشتريها للاحتفاظ بها كذكرى طيبة لهذه الرحلة ، فاستغرقتنا الجولة إلى ساعة الشفق ، وفيما نعرج على طريق الغابة قابلنا إينال عائدا منها وقد ظهر عليه إجهاد غريب ، ولاحظنا وجود جهاز تسجيل صغير فى جيبه ، فسألته سناء فى فرح :

- «سجلت اللحن ؟ يا عفريت ! والله
خطرت لى الفكره دى امبارح ودلوقتى
بس افتكرت أنا كنت عايزه إيه واحنا
بنلف فى البلد ! كنت عايزه أشترى شريط
فاضى أسجل عليه اللحن !»

فى اكتئاب شديد قال إينال :

- «مع الأسف لم يتمكن الجهاز من
التقاطه مع أنه جهاز شديد الحساسية !»

وفى اليوم التالى آخر يوم فى هذا الميناء ، اتفقنا على تلبية دعوة وجهت إلينا عبر محطة اللاسلكى من ضباط مصريين يعملون على سفينة لبنانية وكنت زميلا لاثنين منهم فى مرحلتى الدراسة الإعدادية والثانوية ،

فلما علموا بوجودى على السفينة عايدة من خلال الدردشات التى يتبادلها ضباط اللاسلكى مع بعضهم البعض وهم فى عرض البحر أو المخطاف أو فى الموانئ طلبونى للمحادثة ، وعزمونى على يوم نقضيه معا على أن نلتقى بعد الغداء فى نادى البحرية الموجود فى كل ميناء فنلعب البلياردو ثم ننطلق للسهر فى محلات خفية يعرفونها جيدا . وهكذا لبست سناء ملابس رسمية تليق بالسهرة ، ثم جاء إينال وقد لبس الصندل الجديد الذى اشتراه بالأمس وشبع من الغزل فى جلده ومتانته وشياكته ولونه العنابى ، وبدا أنه فى حال من الإشراق والتحفز للمشى والسهر بمزاج . .

غادرنا الميناء فى نزق صبيانى بهيج . رحنا أنا وسناء نستمع فى شغف عظيم إلى حديث إينال عن منجزات الأدب الألمانى المعاصر فى روائييه الذين فتنوه من أمثال هيرمان هيسّه وتوماس مان وكافكا ، وعن هذا الأخير أفاض بحديث مثير عن رواياته التى فضحت خواء الحضارة الغربية وكيفية تدميرها لإنسانية الإنسان ، وانبرى يلخص لنا رواية المحاكمة

الكفكاوية وكيف أن الإنسان فيها كالمتهم فى قضية مجهولة لا يعرف تفاصيلها حتى قضاته . حديثه كان عذبا وحماسيا لدرجة أنه استغرقنا فنسينا ما كنا نود فعله ؛ وإذا بإينال كان يستدرجنا بلطف نحو الغابة . أظن أنه هو نفسه لم يقصد ذلك بل كان يمضى إليها مسلوب الإرادة مسلوب الرغبة فى أى مشوار آخر . تلقائيا توجهنا إلى نفس الرقعة التى التقينا فيها بالفتية ، تربعنا فوق العشب إلا سناء خشيت تكسير فستانها الثمين فجلست بعيدا فوق جذع مقطوم . بدا لى أن رأس إينال يرتفع ليختلط بأعشاش العصافير الكثيرة الملونة حيث برز صدره وتطاولت رقبته وطرطق أذنيه كنفيرين ، كهوائيين يلتقطان ما يحفل به الأثير من أصوات؛ فصرت واثقا من أنه ليس ينصت لسمفونية العصافير التى تتجاوب معها وريقات الشجر كالكورس فى المسرح الإغريقى يشرح ويفسر ويعلق على الأحداث يستخلص المعانى الكبيرة ؛ إنما كان من الواضح أن إينال يبحث فى الأفق من حواليه عن شىء بشغف كبير . .

يبدو أن هذا الشيء المنتظر كان هو الآخر على موعد مع إينال ، إذ ما لبث الصوت الشجى العبقرى أن راح يتسلل قادما من مكان مجهول ، صوت موسيقى مصرية صرف ، بآلة مصرية حريفة فيها من المزمار والرباب والأرغول والقيثار ، فى صوتها جهارة العاطفة البدائية البكر منطلقة هادرة ، فيه رقة الطبع النيلى الواثق من فحولته الخصيبة ، فيه التياع الأنثى الشرقية المقهورة المكبوتة تنفس عن مكنون قهرها بصوت رفيع حاد يقهر العاطفة الذكورية ، يجلدها بكرباج لاسع حار . صرت أشعر بالقشعريرة التى تنتاب الجسد حينما يعلن حالة الطوارئ لتوليد طاقة حرارية إضافية . لحظتئذ انكمشت رقبة إينال ونكس رأسه فى تركيز شديد ضوعفت من أثره تقاطيع وجهه النحيل النبيل . أما وجه سناء فقد بدا فى لون الكبدة وهى تحاول اختراع لحن مصرى تركب به فوق المعزوفة الصادحة فى هذا الأفق اللانهائى ، فجعلت تدندن بصوت خافت لحنا أعرفه جيدا بل أعرف أنه من تلحين على فراج ضمن برنامج غنائى إذاعى عن

الحج إلى بيت الله الحرام : «والنبى يا جمل ودينى .. على منى وجبل عرفات .. إلخ» ، لكنها فشلت فى تركيب اللحن على اللحن بصورة مزعجة أربكتها وأسكتتها ، فيما رحت أنا أحاول الانسلاخ من أسر اللحن الهادر لأستعيد فى ذكرياتى تفاصيل لحن مشابه كان شائعا فى أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين تغنيه المطربة لوردكاش من ألحان أحمد صدقى وتردده جميع فرق المزمار البلدى : «آمنت بالله .. آمنت بالله .. نور جمالك آية .. آية من الله .. إلخ» ، لكن هذا اللحن اختشى من المعزوفة الفولكلورية فتوارت أنغامه فى ذاكرتى ..

فجأة رفع إينال رأسه ، ضرب جبهته براحة يده ، ترقرقت الدموع فى عينه تعكس شدة الشعور بالقهر والعجز ، جعل يردد فى غيظ وكمد :

- «مش ممكن ! مش ممكن ! سأجن ! ما يغيظنى أن هذا اللحن بالذات له صلة وثيقة جدا بطفولتى وصباى وشبابى المبكر .. فكيف أنساه ؟! أمى يرحمها

الله كان صوتها جميلا وكانت دائما تغنيه لى فى المهد ويؤكد إخوتى البنات أننى كنت أنتعش به فأرفس الهواء بقدمى وقبضتى ! ولما كبرت كانت أمى لا تنى تغنيه كلما انفردت بى لتشعرنى بمدى معزتى عندها ! بات هذا اللحن قنطرة وصل بينى وبين قلب أمى الحبيب حين تغنيه فكأنها تتغزل فىّ أنا ولدها الوحيد على خمس بنات ! يرحمها الله كانت تجعل من هذا اللحن مدخلا لقلبى كلما أرادت أن تهدئ من ثائرتى أو تزيل غضبى أو تعاتبنى على عقوق ، والعقوق فى نظرها يعنى أننى لم أصبح عليها يومين متواصلين ، لم أقبل يدها ذات يوم ، لم أرسل لها من الجامعة خطابا كل يوم !! وأول حب داعب خيالى وقلبى الغض فى القرية بثته فيه فتاة كانت تغنى هذا اللحن باستمرار فيما هى تنشر

الغسيل فوق سطح منزلنا ! وحينما صار الحب ماثلا لكلينا فى العيون بات هذا اللحن مرسالاً ينادينى للقائها ، ما إن أسمعه وأنا أقرأ فى حجرتى حتى أهب واقفا ثم أصعد إلى السطح لملاقاة محبوبتى رتيبة ! كانت رتيبة هى أصدق حب فى حياتى ولو كان الود ودى لتزوجتها ، لكننى لم أكن بقادر على مواجهة الأسرة ومجتمع القرية الذى يستنكر بشدة أن يتزوج جامعى مثلى من فلاحة جاهلة حتى وإن كانت جميلة طاهرة موسرة !! لقد ندمت لأننى احترمت هذا المجتمع وتخليت عن رتيبة ، وإلى الآن لا أعرف أين ذهبت ولا ممن تزوجت !! يا ربى كيف أنسى هذا اللحن ؟! كيف ؟! أهى النذالة إذن قد اكتملت فىّ لتثبت أننى خسيس سريع النسيان لكل ما كان جميلا فى حياتى

ذات يوم ، نسيانى لكلمات هذا اللحن
بالذات لا يقل بشاعة فى نظرى عن
نسيانى لأمى ولرتيبة !!»

كلمات إينال كانت موازية فى تأثيرها لقوة اللحن الذى يبدو الآن كأنه يرانا رؤية العين بل يقصدنا نحن بالذات ليحاورنا ، وها هو ينوح ويتوجع آخذا على خاطره منا لأننا رغم إلحاحه علينا لم نعرفه ، يكاد يعتب علينا قائلا : « ما كانش العشم يا ولاد بلدى تنسونى فى الغربة» . نعم وحق جلال الله إن إحساس العازف يقول هذا عزفا وتقسيما ، أنات وزفرات . عندئذ انتفض إينال واقفا ملسوعا بالألم كالمضروب علقة ساخنة ، انفرد كالمارد مصعرا خديه نحو الأفق صارخا كالملتاث :

- «أرجوك !! أنا تعذبت بما فيه الكفاية
سأنفجر من شدة الغيظ من نفسى !!»

ثم انفجر فى البكاء ، بكاء لم أر أصدق منه فى حياتى ، كل عضلة فى وجهه كانت تبكى بحرقة تتفجر باللوعة والقهر والعذاب :

- «يانا ااان ! يا من تعزفون هذا اللحن ها هنا !! أتوسل إليكم ! أريد أن أراكم الآن حالا ! لقد تعرفت عليكم فى هذا البلد البعيد ولكن اغفروا لى خسة ذاكرتى التى لم تنطق باسم اللحن فور سماعه ! إنما صدقونى أننى أحبكم أموت فى ترابكم ! قولوا لى أين أنتم الآن آتيكم حيثما تقيمون ! افتقدتكم منذ زمن طويل ! منذ أن تخليت عن رتيبة إرضاءً لعقلية طبقية فجة ! منذ أن رحلت أمى إلى غير عودة ! هل أمى عندكم الآن ؟! هل توجد بينكم رتيبة ؟! هل يجىء صوتكم هذا من عالمنا أم من العالم الآخر! أرجوكم أجيبونى ! أجيبونى ! لا تكونوا قساة إلى هذا الحد !! يا أيهذا الصوت البديع كم أعشقك وأذوب فى أوتارك الفذة !!»

وانكفأ على نفسه يواصل البكاء والنحيب . منظره

كان مروعا ، مؤثرا جدا ، حتى أن سناء انزوت بعيدا وانخرطت هى الأخرى فى بكاء صامت حراق . وبدا كأن المعزوفة أشفقت علينا فابتعد صوتها ثم اضمحل تماما . اقتربت من إينال فى وجل ، وضعت يدى على كتفه محاولا العثور فى صوتى على نبرة تليق بمشاعره المرهفة :

- «لقد ضخمت الأمر يا إينال فاهدأ وقم
بنا نعود إلى السفينة لنلحق بموعد العشاء
فلابد أنك جعت مثلى !»

إلا أنه لم يهدأ . كان كمن فقد جميع أهله فى حادث قدرى مأساوى ، فوقف ذاهلا عن تلقى العزاء ، تهدج صوته :

- «لا يا حسين ! المسألة ليست بالبساطة
التى تتصورها !! لقد انخطف قلبى
بالفعل ! ضاع منى !أشعر كأنى كبرت
مائة عام فوق عمرى وأننى لابد لى من أن
أسترد قلبى الضائع فى زمنى المفقود !!»

- «يعنى إيه ؟!»

- « يجب أن تعلم أنه يوجد ها هنا شيء يخصني ! نعم يخصني وحدي على وجه التحديد !! هو صحيح مجرد لحن فولكلوري مصري بالنسبة لك ولنساء التقيتماه في الغربة فأثار شجنكما ! أما بالنسبة لي فإن هذا اللحن يتجاوز حدوده النغمية ! إنه بمثابة رسالة لي شديدة اللهجة شديدة الأهمية !! رسالة لي أنا وحدي دون كل المستمتعين بهذا اللحن قديما وحديثا !! ولابد لي من أن أفك شفرتها وأن أفهم محتواها على وجه الدقة !»

شعرت أن الأمر قد دخل في نفق مظلم ، شعرت بالإشفاق على نفسي وأنا أفكر بسرعة تمنعنا من الدخول في هذا النفق أبعد من هذه الخطوة الخطرة . أخذت إينال في حضني وضممته إلى صدري بقوة لأوقف انتفاضه ، وضعت خدي على خده في مداعبة حنون . أومأت لسناء فأتت ، بمرحها ذي الجاذبية

القاهرة شبكت أصابع يسراها فى أصابع اليد اليمنى لإينال فيما شبكت أنا أصابع يدى اليمنى فى أصابع يده اليسرى ومضينا به كأننا زوجان يسحبان طفلهما الذى تعلم المشى حديثا . كنت قد استرحت تماما حين تذكرت أن السفينة ستغادر الميناء غدا فى تمام العاشرة صباحا . .

ليلتذاك دعانا القبطان لقضاء السهرة فى كابينه باعتبارها آخر سهرة لنا فى هذا الميناء الذى يعتبر أبعد ميناء فى أعالى بحر البلطيق ، وابتهاجا فى نفس الوقت بوصول السفينة إليه فى سلامة دونما أعطال تذكر فى سفينة تبحر لأول مرة . كابين القبطان شديد الفخامة والأبهة ، وثلاجته الكبيرة حافلة بأرقى أنواع المشروبات والسجائر ؛ لاغرو فالسفينة تكتب باسمه فى شهادة ميلادها منسوبة إليه فى جميع الوثائق الرسمية . .

سهرنا إلى وقت متأخر جدا من الليل ، شربنا الكثير ودخّنا الأكثر ومززنا بالفستق واللوز وأشياء أخرى غريبة الشكل مستساغة الطعم . جرجرت سناء

إينال للحديث عن فكرته الرافضة لما يسمى بالعولمة ؛ فأفاض فى الحديث ، أنعم الله عليه بفتوحات وتجليات بلورت فكرته جيدا حتى صارت مقنعة تمامًا وانتشى بها القبطان أيما انتشاء وأشار بإبهامه إلى دولاب زجاجى خلف ظهره ارتصت على رفوفه كتب ومجلات كثيرة ، وقال :

- «هاكم كتاب قصة الحضارة لول ديورانت يقطع الطريق على فكرة العولمة هذه ويؤكد أن التقدم الذى وصلت إليه البشرية اليوم إنما هو جهود حضارات كثيرة كبيرة توالدت من بعضها البعض !»

أثناء عودتنا إلى كابين «الأونر» كان إينال يبدو منشرح الصدر . وفيما يتوجه كل منا إلى غرفته قال إنه سيكمل سهرته إلى الصباح يكتب ما استفاده من هذه المناقشة وأنه عند إقلاع السفينة سيكون قد استغرق فى النوم وهذا من حسن حظه ؛ إذ إنه يكره كل مشاهد الوداع للبشر أو للأماكن فالرجاء كل الرجاء أن

لا أوقظه أو أدع غيرى يوقظه من النوم مهما كانت الظروف والأسباب . كان بالفعل مرهقا جدا ، وكنت الآخر كذلك ومع ذلك شاغبتنى سناء فاستجبت فى الحال فطالت مدة اللقاء بشكل غير طبيعى إلا أنه كان جميلا وفريدا . وفيما نتمدد مرهقين والشمس ترمى دنانيرها الذهبية على الغرفة وعلينا همست لى سناء بأنها أثناء اندماجنا فى اللقاء الحميم سمعت عكرشة فى غرفة إينال ، وأبدت خشيتها من أن يكون قد نال منه التعب تحت تأثير الشرب الذى جرعه بكثرة جنونية ويبدو أنه كان يستفرغ فى المرحاض . لعب الفأر فى عبى ، أزحت الملاءة عن جسدى العارى تماما ، تزملت ببشكير الحمام ، تسللت على أطراف أصابعى إلى غرفة إينال . رأيت الباب مقفولا ، توقفت أنصت لبرهة ، ثم دفعت الباب فى رفق ونظرت عبر فرجة ضيقة فرأيت إينال متمددا على السرير متكلفتا بالبطانية وفى حالة استغراق فى نوم عميق لابد بالفعل أن يكون نهاية شرب بالحجم الذى شربه إينال . سحبت الباب ومضيت متمنيًا له أرزا

باللبن مع الملائكة ، وعرجت على الحمام فألقيت بجسدى تحت الماء الهاطل ؛ ثم لحقت بى سناء فتبادلنا دعك الظهر بالليفة . وأخيرًا لبسنا ثيابنا وخرجنا إلى الكويرته وطلبنا حليبا ساخنا قبل الفطور ، ونبهنا على صالون الطعام بألا يرن الهاتف فى غرفة إينال لأنه مرهق ونائم ويفضل عدم إزعاجه . وبعد تناول الفطور صعدنا إلى غرفة (البريدج) أو قيادة السفينة لكى نشهد المناورة التى تجريها السفينة تأهبا للإقلاع . وإنه لمن الممتع حقا أن تشهد الميناء لحظة الإقلاع فكأن المدينة كلها هى التى تتحرك فوق قرص دائرى لتريك نفسها من جميع الزوايا ، فى حين أن السفينة هى التى تدور ببطء لتعتدل وتأخذ وجهتها فى الطريق المرسوم . بعد الإقلاع نزلنا إلى الصالون حيث تناولنا وجبة الغداء ، ثم صعدنا إلى الكابين ، واربت باب غرفة إينال ونظرت فرأيته مازال متكلفتا بالغطاء متصلب الجسد كالميت ؛ فأشفقت عليه وتركته حتى يشبع من النوم فيصحو وحده . وحينما استدعينا للعشاء كانت الساعة قد جاوزت الخامسة

والنصف مساء وكانت السفينة أمست فى عرض البحر لا شيء يرى على الإطلاق غير الموج من جميع الجهات وراودنى خاطر بأننى يجب أن أوقظ إينال فلربما يكون معتلا بالفعل فنسعفه ، وله أن يعاود النوم إذا أراد بعد تناول العشاء . نقرت على الباب ، ناديت ، فتحت الباب ، ناديت : «إينال ! إينال ! إصحى بقى كفاية نوم !» ، فلم يرد ولم يتقلب. مددت يدى لأهزه ، فإذا بيدى تغوص فى شيء هش . فزعت ، شهقت . لحقت بى سناء فزعة بعد أن كانت محرجة من دخول غرفة رجل نائم فيها . نزعت الغطاء فإذا به كان ملفوفا حول وسادة بشكل يوحى لمن يراه بأنه جسد رجل نائم . ضربت سناء صدرها بيدها وصرخت :

-«يادى المصيبة السوده حنعمل ايه دلوقت ؟!»

تسمرت فى وقفتى عاجزا عن كل نطق وحركة حيث أصيب رأسى بالشلل . صرخت سناء فى وجهى بحدة :

-« حسين حنعمل إيه فى المصيبة دى ؟
مالك جرى لك ايه يا حسين ؟!»

ثم تركتنى وهرولت خارجة تتخبط فى المقاعد وهى تولول كامرأة ذاهبة إلى قسم الشرطة لتبلغ عن ضياع ابنها . كانت بالفعل تحب إينال كواحد من أنضج زملائنا رجولة وأكثرهم أدبا وأخلاقا ، فليس غريبا أن تتوتر وتشعر بالفجيعة . .

تبعتها صاغرا . عاجرا . كانت أسرع من الصوت وهى تقتحم كابين القبطان كالقذيفة ، وإذ لحقت بها كان القبطان شاحب الوجه شاعرًا بالهول العظيم وكان من فزعه يصرخ فى سناء لكى تتكلم بهدوء حتى يفهم جلية الخبر ؛ فلما رآنى هرع يستنجد بى مستفهما ، ولكننى لم أكن قد توصلت بعد إلى الصيغة الملائمة لإبلاغه بحقيقة ما حدث .

تمت

المعادى - شارع النصر - مساء 1 - 10 - 2001

قُدَّاس الشيخ رضوان !

الشيخ رضوان المالكى ليس شيخا على الإطلاق ولا يمت بأية صلة لأية مشيخة ، ومع ذلك فجميع أهالى بلدتنا «شباس عمير» ينادونه بلقب الشيخ ؛ ربما لأن لفظة الشيخ باتت جزءًا من اسمه مثلما تدخل ألقاب كثيرة فى أسماء الناس عندنا بل تدون فى شهادات ميلادهم كالشباس والفرماوى والقاضى والنجار ، وما إلى ذلك . العجيب أن اللقب الذى كان جديرا بأن يدخل فى تركيب اسمه وهو النجار لم ترد له إشارة فى اسمه قط ؛ ذلك أن شهرته كنجار أزاحت عن الأذهان لفظة التعريف : النجار ، فأصبحت بلا ضرورة لأنك ما إن تذكر اسم الشيخ رضوان المالكى فى بلدتنا حتى تتداعى فى ذهنك أعمال النجارة وأدواتها بل تكاد تشم رائحة الخشب

الجديد وصدأ المسامير القديمة والنشارة التى تفرش أرض ورشته كسجادة بدائية لا تخلو من جمال ساحر ، سيما فى زمن المطر الغزير بأوحاله التى تعجن الأرض .

لا أحد فى بلدتنا - حتى فى عائلة المالكى نفسها وهم أخوال لأمى - يذكر متى نودى الشيخ رضوان المالكى بلقب الشيخ لأول مرة ، ولا كيف التصق به الاسم مع أنه لا يقرأ ولا يكتب ؛ ولكن الرجال فى محيط عائلتنا يتسمون فى أريحية إذا جاءت هذه السيرة فى أى قعدة عائلية ، ثم يعلق الكبار منهم بأن لقب الشيخ على كل حال لم يغترب ؛ لأن عائلة المالكى فى الواقع متدينة طول عمرها وفيها دائما أبدًا أكثر من شيخ رسمى تعلم فى الأزهر ولبس الجبة والعمامة وأمَّ الناس فى الصلاة وخطب على منبر الجمعة عن جدارة . وصحيح أن العائلة يكثر فيها الفُساق والمنحلون والمدمنون بصورة تكاد تنافس صورتهم التدينية البارزة إلا أن الغالب على سمعتها مظهر الاحترام فى نهاية الأمر ، ثم إن الشيخ رضوان

نفسه رجل طيب القلب مؤمن لا يؤجل فرضا من الفروض بل إنه أول من يدخل المسجد وآخر من يخرج منه . . ومن هنا فإنه لاشك يستحق المشيخة . ويقول أبى فى نبرة تشى بالتحيز العاطفى للشيخ رضوان رغم أنه لا يحب العائلة برمتها ، ولولا أنهم أخوال أمى لما أقام لهم وزنا على الإطلاق ، يقول مشوحا :

-«شيخ شيخ انتوا خسرانين حاجة !
ولا تكونش المشيخة دى لقب ينعم به
الملك على من يرفعه من الرعية كالباشا
والبك ؟ الناس شيَّخت الشيخ رضوان !
خلاص ! فليكن الشيخ رضوان !ماذا
يضركم فى هذا ؟»

يخشى الخبثاء اللؤماء من عائلتنا - وبخاصة النساء العجوزات - أن يجهروا بسبب الاعتراض القابع فى نفوسهم جميعا بما فيهم أبى نفسه . تكاد عيون الحاجة «نحمده» - وهى زوجة أكبر أعمامى وبنت عمه فى الوقت نفسه - تسلق أبى بشواظ من

لهب تبعثه من ركنها الأثير خلف بوابة الدار ، وهى مع ذلك نظرات باسمة هازئة مشرقة بكثافة السنين على ملامحها الجارمة ذات الجمال العتيق الباقى رغم بلوغها السبعين من العمر ، ودون أن تنطق بحرف نفهم جميعا ماذا تعنى هذه النظرة . إننا نعرف ترجمتها الصوتية من فرط ما سمعناه من تعليقات على تصرفات الشيخ رضوان المالكى من أنه «فلاتى» يعشق قعدة النسوان ويتسلل بينهن فى نعومة فائقة يتبادل معهن الوذودة ومسك سيرة الناس ، وقد أكد جميع الرجال الذين يسهرون فى مندرتنا أن النسوان فقدن الشعور برجولية الشيخ رضوان المالكى ؛ ولهذا يطلن الجلوس معه دون أى شعور بالحرج ، ربما لبراعته فى تقليد لهجة النسوان وحركاتهن والتوسل بضرب الحاجب وغمز الشفتين وتسبيل العينين برغم الرجولية المفرطة فى مظهره ؛ إذ هو مشعرانى ، كثيف الشعر فى كل ملليمتر مربع من جسده حتى ليبدو من بعيد كحيوان أليف ، كقرد كثيف الشعر ، فى الصدر غابة وعلى ظاهر اليدين غابة وفى الساقين غابات ، ناهيك

عن لحية تطلب الحلاقة والتشذيب كل بضع ساعات إلا أنه لا يفيق لها فيتركها إلى أن تستحق الحلقة - شعرا وذقنا وتسوية شارب - الخمسة المليمات التى يدفعها لفتحى سعادة المزين ؛ كما أن صوته - مهما نعّمه ورقّقه وشذب خشونته - رجولى صرف . ومن هنا الطرافة ، فرجل بارز الرجولة - وطيب القلب فى آن ، ومبرأ من السلوك المشين - لابد من أن يكون طريفا خفيف الظل حين يتخاطب مع النسوان بلهجتهن ومفرداتهن ونفس حركاتهن فى التلويح بالأيدى المفرودة الأصابع .

فى رأى حكماء عائلتنا أنه أجبر على أن يصير هكذا لأن النسوان هن المجال الحيوى فى حياته ، فهو كنجار متعدد المهارات ، من إصلاح السواقى إلى صنع الأبواب والشبابيك والأسقف ، إلى صنع الكنب البلدى والدواليب والصناديق ، إلى تصليح ، بل وتصنيع ، الضَبّة الخشبية التى تفتح وتغلق أبواب الدور ؛ وكل هذه الأعمال زبائنها فى معظمهم من النسوان ، هن اللائى يستدعينه أو يذهبن إليه فى

الورشة ويتفقن معه ويساومنه ويناكفنه فى المساومة ، وهو يلتف حولهن مقدما فيصاحبهن ويتحدث معهن فى الخصوصيات بروح أخوية ودودة ؛ حتى ينجح فى تخديرهن وامتلاك السيطرة عليهن فينجو بذلك من المساومة وينفى عن نفسه اللوم والحرج إذا ما اضطر لطلب التشهيل فى دفع باقى الحساب .

أما كون الشيخ رضوان المالكى بهذا الأسلوب فى الحياة قد تمكن من معرفة كل أسرار بيوت البلدة وبالتفصيل من كبيرة لصغيرة ، فإن هذا لا خطر منه فى الواقع ؛ لأن الشيخ رضوان والحق يقال كالبحر تهدر أمواجه فتكتسح كل ما يعرفه وتلقى به إلى بعيد أو تهبط به إلى قاع سحيق لا يستطيع بلوغه أحد . إنه يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم كلما نخسته فى جنبه معلومة جديدة ذات حساسية من نوع ما ، تلمع عيناه الزرقاوان بما يبدو أنه خبيث كخبث المشعوذين لكن البريق سرعان ماينطفئ ، وتنسدل أهدابه فى ورع وتقوى ، ثم ما يلبث حتى يرفع رأسه للسماء باسطا يديه مرددا فى ابتهال :

- «اكفنا شر الفضايح يا رب !»

وفى الحال يتجاهل الأمر كأن لم يكن . .

نسوان البلدة يعاملنه كقط أليف وإن كان دكرًا شرسًا عند اللزوم . يتردد فى مندرتنا باستمرار أنهن يحببنه لأنه ليس لديه أية مشكلة على الإطلاق . . فكل التصليحات «العقدة» التى يعجز عنها الأسطوات جميعا من المؤكد أن حل عقدتها سيكون على يد الشيخ رضوان المالكى ، لابد من أن يخترع لها حلا بسيطا جدا لكنه لفرط بساطته غاب عن أذهان الكثيرين . . وحين يجوع فى أى دار من دور البلدة يطلب الأكل فى الحال ، والأكل عنده اسمه : لقمة : مفيش لقمة يا اسيادنا ؟ وبصلة المحب عنده خروف ، رغيف وعرق لفت ، عودين من فجل ، طبق مش ، باذنجانة محدقة ، حزمة سريس ، كله خير وبركة ، حشو معدة والسلام ، والحمد لله . . إذا وجد أن لباسه لم يغسل بعد ويريد تغيير اللباس فلا حرج عنده مطلقا فى أن يرتدى لباس زوجته الحاجة ست ، فالتفصيلة واحدة ، لباس بحجر ودكة ذات شراريب

مع اختلاف لون القماش بين حريمى ورجالى وهذا ما لا يقيم له وزنا . . عياله الثلاثة رجال لهم أحفاد ، وعدة الورشة موزعة بينهم ، دائما أبدا يكتشف أن المنشار الكبير مع القادوم الكبير سرح بهما عباس لإصلاح ساقية ، وأن السراق - المنشار الشريحة - أخذه محمد وراح ينشئ باب خُنّ للدجاج فى دار بعيدة ، وأن الفارة والعتلة مع عبد الحميد فى مشوار لتجهيز كنب لإحدى العرائس ، ولكن لا شىء من ذلك يعطله ،لكل أداة عنده بديل يخترعه فى الحال ، إنه من فرط الدربة والحرفنة والخبرة الطويلة يكاد يستغنى عن كافة الأدوات ؛ لأن أصابعه قد احتوت مواهب الأدوات ، سيما وأن عياله الثلاثة قد تكلفوا عنه بجميع المهمات الثقيلة وتركوا له الأعمال البسيطة التى لا تحتاج إلا لأبسط الأدوات قياسا على خبراته العميقة .

جميع الرجال كذلك يحبونه بعمق وإن سخروا منه واستهجنوا الكثير من تصرفاته التى تبدو لهم خرقاء خارجة على المألوف . على أن هؤلاء وأولئك يذبن

وجدًا وطربا حين يكون الشيخ رضوان المالكى مندمجا فى العمل متوحدا مع نفسه الطروبة مسترسلاً فى الغناء لنفسه بصوت خافت ، حينئذ يبدو وكأن السماء نفسها تغنى ، بكل ما فى الفضاء من طيور مغردة ، الطير والحيوان والحشرات والنباتات وكل ما يتنفس على الأرض يصير نغما شجيا ينساب متدفقا ، فيمتلئ المكان كله بمشاعر زاحفة على الأرض محلقة فى السماء تبعث الدفء والقشعريرة فى النفوس ، قد تدفعها إلى البكاء بحرقة إلا أنها حتى وإن بكت فمن البهجة حيث ينفض النغم القلوب نفضا يخلصها من أوجاعها ويصهر السموم المتراكمة على الصدور فتهمى دمعا على الخدود .

لا غرو فالكل يعرف أن الشيخ رضوان المالكى كان المؤذن الرئيسى للجامع الكبير فى وسط البلد فى عز شبابه ، فى استغاثة الفجر ينساب صوته إلى الأفئدة المتدثرة بالأحرمة الثقيلة فيوسع أعصاب الأجسام النائمة يضاعف حجمها فينحسر عنها الغطاء فتنهض واقفة تلهج بالأدعية ، كل واحد أو واحدة يصحو

لحظتئذ يعيد صياغة الاستغاثة فى نسيج خاص يدخل فى سياق كل عبارة ليرصعها بدعواته وابتهالاته الذاتية الخاصة . ورغم أنه قد هجر استغاثة الفجر واستغاثة الجمعة منذ ما يقرب من عشرين عاما حيث أصيب بمرض الروماتيزم فلم يعد يقوى على الصحو قبل موعد الفجر فى عز الصقيع ؛ فإن الأذان فى بلدتنا لا يزال مرتبطا باسمه ، مع أن المساجد عندنا استقطبت مآذنها شبانا كثيرين ذوى أصوات جميلة قوية . حين يلتبس الوقت على الناس فى لحظات العمل يتساءلون وهم ينظرون فى ساعاتهم : «الشيخ رضوان أدن ولا لسه ؟» . ويقول بعضهم عند تحديد المواعيد : «أول ما تسمع الشيخ رضوان بيأدن الفجر تيجى تخبط علىّ » . فى قلب كل واحد من أهالينا وجع حميم مبهج غرسه فيه صوت الشيخ رضوان المالكى باستغاثته للفجر التى كانت تستغرق ما يقرب من نصف ساعة ، يصول فيها صوته ويجول باكيًا نائحا عاصرًا دموع الورع والتقوى . .

من حسن حظى أن طفولتى أدركت طرفا غير قليل

من تلك الاستغاثات الرضوانية الجبارة حيث كانت مشاعر الرهبة تمزقنى وتبددنى فأتوه تحت تأثيرين عنيفين : صوت الشيخ رضوان وما يضخه فى الفضاء الواسع الخالى من جمرات لهب تضىء وتبعث الدفء مع القشعريرة فى أوصالى ، وصوت أمى وهى تستقطب عدوى النواح المرعوش بجيشان مروع فيما هى تردد خلفه الأدعية فكأنها تنسج أمام ناظرى سجادة مسطورة بعبارات الاستغاثة ومنقوشة بدعوات أمى بأن يغفر الله لها ولكافة العباد وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدا ويبسط لنا الرزق ويسدد خطانا بالتوفيق ؛ من طيبة قلبها تظن أن الله فى حاجة لأن تذكره بأسماء عيالها فتذكرهم له واحدا واحدا . ومنذ ذلك التاريخ وأنا أحب الشيخ رضوان المالكى وأعتبره فاكهة بشرية عبقرية المذاق حقا ، أحب شكله الذى لم يتغير طوال عمره الذى عاصرته ، نفس الحنك الواسع تطل من بين شفتيه الممتلئتين أسنان كبيرة عليها طبقات من صدأ الشاى الثقيل وتدخين السجاير اللف ، وشاربه الخفيف أبيض الشعر كبقايا فرشاة نحل الزمان وبرها ؛

على شفتيه ابتسامة لا تجف ولا تغيب حتى وهو منفعل فى الكلام بصوته الهادئ الحكيم المريح المؤنس كصوت شخليلة الأطفال ما إن ينطق حتى يكف الجميع عن اللغط وينصتون فى انتباه وشغف ، وإذ يتكلم فإنه قد لا يقول شيئا مهما بل الغالب أنه سيقول كلمة شديدة الهيافة لو قالها أحد غيره لأسكته الناس بزفة من السخرية والاستنكار لكنها عندما يقولها تصير بقدرة قادر كلمة مهمة تستحق أن يكون فيها فصل الخطاب ؛ مما يجعل أبى يصفق كفا على كف من فرط العجب ويقول لمن حواليه : على فكرة يا جماعة إن الكلام كله ليس مُهمًا فى ذاته مَهْما كان ثقيل الوزن ثمين المعانى إنما المهم حقا هو الصوت الذى يقول الكلام وكيف يقوله بشكل يرغم الناس على الاستماع إليه واستطعامه ، وصوت الشيخ رضوان ينير الكلام بإيقاعه الحكيم فإذا ما كنا نظنه تافها ليس بتافه ! . .

غرام أبى بالشيخ رضوان المالكى معروف لجميع الناس ؛ ليس فحسب لأنه من أخوال أمى بل لأنهما صديقان منذ الطفولة ، فدار المالكى القديمة التى آلت

ملكيتها إلى الشيخ رضوان ، باعتباره أصغر إخوته حيث كان من يتزوج منهم يبنى لنفسه بيتا فى أطراف البلد ، ملاصقة لدارنا الكبيرة وبين الدارين منور مشترك ومفتوح على خلاء الحقول على شكل زاوية قائمة . دارنا فى هذا السرداب الجميل الذى يتسع بالكاد لمرور حمارين محملين بالبرسيم . على يسارك وأنت داخل ، وفى مواجهتها على الناصية المقابلة جدار الكنيسة الممتد أفقيا بطول السرداب متجاوزا حدود دارنا حيث ألحقت بها عدة دور يسكنها المعلم غطاس سمسار القطن ، والمعلم إبراهيم صليب الموظف بمصلحة الشهر العقارى فى مركز قلين ، والمقدس عزيز عبده وإخوته الكثار وهم ورثة لأملاك أبيهم الشاسعة من أراض زراعية ونخيل يفوق الحصر . ثم يتفرع السرداب عند نهاية دارنا إلى فرعين أحدهما يسبق الآخر ؛ أما عند آخر دارنا فالسرداب يميل يمينا ليلتحم بقناة تسرى فى أحشاء مساحة خضراء شاسعة تمتلئ بأشجار عتيقة عفية سامقة تطرح خوخا وعنابا ونبقًا وبرتقالاً وليمونًا ،

وفى أحشائها البعيدة يتخفى قصر عائلة أبو سيف مالكة هذه الحديقة وهذه العائلة وإن كانت تقيم آنذاك فى مدينة طنطا إلا أن كل شىء فى الحديقة يبقى فوق الشجر إلى أن يحضر مندوب عن العائلة ذات لحظة ليبيع الثمار للتجار فى مهرجان بهيج تنتظره عيال بلدتنا بشغف لكى يملأوا حجورهم بسواقط الثمر ونفايات الفرز الأولىّ . وأما الفرع الآخر للسرداب فإن تشابه المبانى يعطى جدار الكنيسة امتدادًا طويلا يصل إلى حدود بحر السبيل ، ثم يميل السرداب يسارًا لينعطف بعد قليل مكونا حارة ضيقة متعرجة مع شاطئ بحر السبيل ملتحمة بالشارع العمومى ، حيث تلتحق بحارة مقابلة تسكنها بضع عائلات من إخوتنا الأقباط وكلهم من ذوى الأطيان وبعضهم يعمل فى الصرافة وتجارة الحبوب وبعضهم الآخر حِرفى : نجار أو خياط أو حداد أو بناء ، وهم جميعا يحظون برواج كبير فى بلدتنا التى تثق بذممهم بغير حدود حيث لا أحد فيهم يكذب أو يدعى ما ليس فيه أو ينقض عهدا أو يتأخر فى موعد أو يطمع فى أكثر من رزقه . ولهذا فإن أبى

لم يكن يفتح فمه بأى اعتراض حين يسمع عمتى تفيدة - شقيقته الكبرى - تطرى حسن الجيرة بقصائد ومدح فى أمانة الست أم جرجس الخياطة التى تخيط لنسوان الدار كلهن وترد إليهن ما تبقى من فضلات الأقمشة أو تصنع منها الطواقى والمناديل . أبى نفسه لو حصر أصدقاءه الأعزاء لوجد أن أغلبهم من القبط ، يسهرون معه كل ليلة فى مندرتنا حتى ساعة متأخرة من الليل ؛ وقبل أن أدرك الفرق بين الديانة الإسلامية والديانة المسيحية لم يكن يدور بخلدى أن هذه الوجوه المتشابهة فى كل شىء ، تتكلم نفس الكلام تلبس نفس الثياب تأكل نفس الطعام تحكى نفس الحواديت تترنم بنفس الأغانى فيما تتبادل كوبات الشاى ولف السجاير يمكن أن يكونوا طائفتين لكل منهما عقيدتها وصلواتها وصومها المختلف ، وحتى بعد أن كبرت وأدركت البعد الإنسانى للديانات بقيت الملامح تلتبس علىّ إلى اليوم ، فكثيرا ما أنادى على أحد الرجال باعتباره عم محمد رمضان فإذا اقتربت منه اتضح لى أنه عم صليب ، والعجيب أن الملامح واحدة إلى حد

التطابق والأعجب أن كليهما فلاح ونجار سواقى معا، كما أن الجلباب يشبه الجلباب . ولم أكن وحدى من يقع فى هذا اللبس ، فالشيخ رضوان المالكى نفسه مشهور فى حارتنا بالمقدس عزوز ، كما أن المقدس عزوز مشهور - ربما فى البلدة كلها - بالشيخ رضوان وذلك لشدة التطابق بينهما فى القامة النحيفة الصلبة وفى المشية المفرشحة وفى الشارب الأبيض واتساع الحنك وبروز الجبهة تحت الطاقية الصوف المنجعصة إلى الوراء بشكلها الهرمى كأنها ما بقى من تاج الملك مينا موحد القطرين ، وكلاهما - الشيخ رضوان والمقدس عزوز - سعيد باسمه المستعار ، بل إنهما حينما يلتقيان ليلا فى مندرتنا حول أكواب الشاى الثقيل والجوزة يتبادلان التنكيت بصورة تهز جدران المندرة من فرقعة القهقهات المرحة المنطلقة ، ففى كل ليلة يجىء أحدهما بدليل جديد يؤكد ادعاءه بأن أم الآخر كانت «تتوحم» على أبيه . فى إحدى الليالى دخلت عمتى تفيدة لتعلن احتجاجها على هذه المحششة التى حرمتها النوم ، إلا أنها استحت من

الرجال فدفعت بعكازها إلى الأمام وجلست على طرف الكنبة القريبة من باب الدهاليز ، وإذ ألمت بطرف من المهاترة الدائرة أرادت أن تعالج الخلاف فدرغمته ؛ قالت إن الشيخ رضوان مولود أمامها داخل حرم الكنيسة حيث كانت أمه وهى حامل فيه قد اشترت عشر شمعات وفاءً لنذر على ذمة مارى جرجس كانت قد نذرته بين يدى الست أم أستير حينما ذهبت إليها تستشيرها فى أمر انقطاع الحمل عنها طوال أربع سنوات ، فأشارت عليها أم أستيرأن تستبارك بمارى جرجس وتنذر له نذرًا وهو يتوسط لها عند الرب كى يعيد إليها الخصوبة ، فالتزمت أم رضوان بهذا النذر فلما حملت بالفعل نسيت أمره لكنها شعرت بأن المخاض تأخر والجنين كف عن الحركة فى بطنها فحينئذ تذكرت النذر فارتعدت ، ومن فورها باعت تحويشة بيض الدجاج واشترت الشمعات ودخلت الكنيسة لتضعها بيديها فوق الهيكل فما إن دلفت إلى الباحة حتى جأرت بالصراخ وتكومت على الأرض فما كدنا نلحقها حتى كان الشيخ رضوان

تحت حجرها ويرفس . كانت عمتى تفيدة تريد إيقاف الضحك ففجرته تفجيرا ؛ إلا أنها دقت الأرض بعكازها فى قوة فانتبهوا ، فقالت أما المقدس عزور فقد ولد فى عزبة نصيف ولم تجئ عائلته إلى بلدتنا إلا وهو صبى .

شد أبى نفسا من الجوزة ولمعت عيناه بخبث لطيف وهو يقول :

- «إنتى نسيتى حاجة مهمة يا تفيدة يا اختى . .» .

فدقت الأرض بعكازها صائحة :

- «صبرك بالله علىّ . . أنتم صدعتم رءوسكم ورءوسنا من أجل أن تعرفوا سر الشبه بين الشيخ رضوان والمقدس عزوز مع أنكم لو هرشتم فى أدمغتكم لتذكرتم السبب ! . . إن الشيخ رضوان راضع من ثدى أم المقدس عزوز !»

حط عليهم صمت مفاجئ فبدوا كالأطفال حين يسمعون خبرا عن عفريت قادم ؛ لمعت عيونهم

بالرعب والشغف ، نكس بعضهم رأسه فى محاولة لعصر دماغه . وطرقع أبى بأصبعيه فى ابتهاج صائحا :

-«بس بس بس ! مضبوط !تذكرت !فعلا أم الشيخ رضوان جف لبنها بعد ولادته مباشرة !»

شوحت عمتى تفيدة بالعكاز كأنها تهدده بالضرب وشخطت فيه بقوة :

- «بل ماتت بعد ولادته بأيام ! حمى النفاس خطفتها من وسطنا «خطف» يا حسرة قلبى عليها !.. بحثوا عن مرضع فجاءتهم أم المقدس عزوز غاضبة ! قالت كيف تبحثون عن مرضع بالإيجار وأنا موجودة بجواركم ! أيامها كانت ترضع أختك ما تيلده يا مقدس أتذكر ؟»

أومأ المقدس عزوز برأسه فى استعبار والبسمة الخجولة على شفتيه كأنه يتمثل شكل أمه لو كانت حاضرة الآن وسمعت هذا الإطراء على ذلك العمل النبيل .

ذلك التصريح الذى أدلت به عمتى تفيدة فى تلك الليلة البعيدة فسر لى الكثير مما لم أكن أدركه من تصرفات الشيخ رضوان المالكى تجاه الكنيسة . كان دائما أبدا ينظر إليها بنفس القدر من الحنو الذى يربطه بجامع العصاروة الواقف على مبعدة خطوات قليلة . كان الشيخ رضوان هو المفوض من قبل عموم أهل الناحية لمتابعة صيانة طلمبة المياه الخاصة بجامع العصاروة ، وتمتد متابعته إلى صيانة حنفيات الوضوء المتصلة بالصهاريج ، وحنفيات دورات المياه ، ودائما أبدًا نراه يجمع تبرعات قليلة لإصلاح أو استبدال الحنفيات ولا يهمد حتى تفاجأ ذات يوم بأنه قد أفلح فى تغيير معظمها ، ودائما أبدا يوصى خطيب الجامع بالتنبيه على الناس بالتزام الرفق فى التعامل مع الحنفيات وبعدم الاستحمام فى دورات المياه . أما بالنسبة للكنيسة فإن عنايته بها تمضى فى غير تظاهر ، كأن تفاجأ ذات يوم بأنه فى الورشة منهمك فى التحاور مع قطعة خشب يحاول خرطها على طراز المشربيات لكى يثبتها مكان قطعة بالية فى الهيكل . .

غير أننى كنت أعرف - بحكم الجيرة - أن علاقة الشيخ رضوان بالكنيسة لها جانب خفى لايعرفه إلا سكان حارتنا . أذكر أننى ذات يوم بعيد جدا ، وفيما كنت ألعب النحلة تحت شباك مندرتنا مع محمد بن الشيخ رضوان ، فإذا بغناء هادئ ينبعث من داخل الورشة ؛ كان صوت الشيخ رضوان أشبه بصوت الرباب يصدر أنغاما حادة ترعش البدن ويقف لها شعر الرأس . رميت النحلة وانصرفت للإصغاء وقد أصابتنى بلبلة ؛ فهذه الأنغام وإن فاجأتنى وزلزلتنى بدت مألوفة لى ، إنها نفس الأنغام التى سمعتها أكثر من مرة تصعد من داخل الكنيسة أثناء ما يسمونه بقداس الأحد ؛ انتبهت لحظتها إلى أن هذا القداس لم يعد يقام منذ بضع سنوات ، حتى ذلك الرجل اللطيف ذو العمامة السوداء واللحية السوداء والرداء الأسود ، الذى كنا نهرع جميعا لنسلم عليه ونقول له كما يقول الكبار : يابونا ، وكان الجميع يسلمون عليه بحرارة ويطلبون منه الدعاء ، وكان يوزع علينا حبات الكرملة والطوفى ، كنا نفرح بقدومه جدا ، ربما من أجل ذلك المهرجان الذى تقيمه الكنيسة حيث صوت الترانيم

الراعشة للأبدان فنتسلق الأسطح ونتسلل إلى الداخل ونتشعلق فى النوافذ العالية فوق أكتاف أمهاتنا لنرى صفوفا من رجال يلبسون ثيابا غريبة متشابهة متوحشة ، يضربون الكاسات ويحملون المباخر ويقومون بحركات قريبة الشبه بحركات الذاكرين فى الحضرات وحركات المصلين فى المساجد إلا أنهم لا يركعون ولا يسجدون ، مع أن أبى قال لى إن هذه هى صلوات إخوتنا الأقباط . فلما سمعت تلك الأنغام من الشيخ رضوان المالكى فرحت كأننى نجحت فى امتحان ، وجريت إلى الورشة متوقعا أن مهرجان الكنيسة سوف يعود بعد انقطاع . لم يعبأ الشيخ رضوان بى وظل منخرطا فى الترانيم فيما يخطط بالقلم الكوبيا على شرائح من الخشب، سرعان ما انتبهت إلى أن هذه الأنغام الكنسية التى لم نكن نفهم ما تنطق به من كلام هى الآن على صوت الشيخ رضوان تنطق ببعض كلمات مفهومة يرد فيها ذكر النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، وذكر الزمان الغدار ، وابن آدم المغرور . . . قلت للشيخ رضوان بجرأة اعتادها منى :

- «أنت تغنى غناء الكنيسة بكلام من عندك ؟»

فضحك وتأملنى مليا . فهمت من بريق عينيه أنه يستحسن ذكائى ؛ ثم إذا به يقول :

- « براوة عليك يا عكروت ! الكلام من عندى واللحن من عند الكنيسة ! أنا أصلى أحب هذا الغناء وأذوب فيه لدرجة أنى حفظته كله مع أننى لست أفهم من كلامهم إلا كلمة من الشرق وكلمة من الغرب ! لكننى متأكد أن كلامهم فى هذا الغناء مرفوع إلى رب السموات والأرض! وعلى كل حال فإننى حين يجىء هذا الغناء على بالى يرتعش قلبى ويضع على لسانى هذا الكلام !»

وجدتنى أسأله :

- «منذ مدة والكنيسة لا تغنى فما السبب يا شيخ رضوان ؟!»

انشرح وجهه الأبيض كالرغيف المحروق من

حرارة الفرن ، ثم هتف وهو يضع القلم الكوبيا فوق أذنه . .

- «خلاص يا ولد ستغنى هذا الأسبوع احتفالا بعيد القيامة بعد ثلاثة أيام ! الكنيسة كانت محتاجة للترميم وتهدد بالوقوع فوق رءوس المصلين ! و . . الأب الذى كان يوزع عليكم الكرملة قد هلك منذ حوالى سنتين يعنى الله يرحمه ! وقد عينوا أبا جديدا سوف يأتى فى العيد لإقامة القداس ! الحمد لله انتهينا من ترميمها ولو دخلتها الآن ستجدها كالعروس ! العبد لله قام بالواجب فأنا أحسن من يقيم الصلابات كما أن أحدًا لا يستطيع تجديد الهيكل مثلى ! تعرف يا ولد ! أجمل شىء فى الدنيا أن يكون العبد خادما فى بيوت الله !»

كنت واثقا من صدقه ، وأشعر بأن فرحته بعودة القداس قد انتقلت إلىّ وراحت تسرى فى عروقى

كجيوش من النمل . جعلت أحسب الأيام فى انتظار هذا المهرجان الغنائى البهيج . بعد يومين من محادثتى مع الشيخ رضوان بدأت وفود من الضيوف تملأ حارتنا وتصب فى الكنيسة ونحن جميعا - كبارًا وصغارا - نحتفى بهم ونضع أنفسنا تحت أعينهم مستعدين لتقديم أية خدمة . ثم بدا أن فى الأمر مشكلة غامضة ، حيث استدعى الشيخ رضوان إلى الكنيسة عدة مرات ، وانتحى به البعض فى أركان قصية عدة مرات وكان من الواضح أنهم يجهدون أنفسهم فى محاولة لإقناعه بأمر ما ، وهو يبدو شاردًا إلا أن وجهه انطبع عليه شعور حرت فى تفسيره بين الشعور بالفرح والشعور بالحرج ؛ مما أثار فضولى وحفزنى على معرفة جلية الأمر ، فكلما رأيته منزويا فى ركن يتحدث مع أحدهم أتسلل من خلفهما لأقف على مقربة منهما أحاول التقاط شواهد الكلام فما ظفرت من وراء ذلك بشىء . .

إلى أن جاء اليوم الموعود ؛ وكنت مارًا أمام الباب الخلفى الذى يفتح على فناء الكنيسة المزروع

بعض أحواض الزهور ؛ فتلكأت وصرت أسترق النظر ؛ ثم تجرأت ودلفت إلى الداخل ؛ فإذا بى أرى المعلم رزق الله الخياط واقفا أمام رجل يرتدى لباس من يؤدون القداس ، والمعلم رزق الله ممسك بالإبرة وقد راح يقيس الوسع فى اللباس ويقطبه ، ويضع عليه الوشاح ، والحزام . رفعت رأسى إلى وجه الرجل ، فتجمدت الصورة فى عينى من فرط الذهول ؛ ذلك أن الرجل كان هو الشيخ رضوان المالكى . لم أستطع كتمان الخبر ، جريت إلى دارنا ، انتظرت حتى انتهى أبى من قراءة سورة يس التى يقرأها كل يوم مرة فيما بين العصر المغرب ؛ قال : صدق الله العظيم ، وأغلق دفتى المصحف ونظر نحوى :

- «عاوز إيه يا ولد؟»

أبلغته بما رأيت ؛ فانفشخ حنكه عن ابتسامة هتماء خفيفة الظل اكتشفت فيها الكثير من شقاوة الأطفال . ثم قال :

- «يعنى وافق الشيخ رضوان !»

- «وافق على إيه ؟»

صارت الابتسامة ضحكة متكسرة ، من خلل فتافيتها جمعت تفاصيل الموقف : لقد هاجر من بلدتنا أحد أهم حفظة القدَّاس وحامل نوته الموسيقية ، ولم يبق إلا شبان صغار يلزمهم حافظ يضبطهم ويقودهم ؛ ولما كان الشيخ رضوان من أحفظ الحفظة طوال ما يزيد على نصف قرن من الزمان أمضاه فى عشق القداس والألحان الكنسية فما المانع من أن يتطوع بإحياء القداس مع إخوتنا الأقباط ؟ ها هو ذا الشيخ رضوان المالكى لم يجد مانعًا ، كثَّر خيره على كل حال . .

هكذا أنهى أبى حديثه . ورغم نوبة الضحك التى ألمت به كان شيء ما فى عينيه يشى بأنه هو الآخر لا يجد أى مانع فى أن يتطوع الواحد بمثل هذه الخدمة البريئة النقية الخالصة لله وحده . والواقع أن أبى ورفاق مندرتنا كانوا أكثر منى فضولاً ، إذ بينما أنا منزو فى ركن بعيد من فناء الكنيسة أتابع مبهورا وقائع القداس وأرى الشيخ رضوان قد ذاب فى الألحان وصار أشبه بملاك يطير محلقا فى فضاء النغم ليهبط

فى دفء وحرارة ليستقر فى صدرى يهدهده ، لمحت أبى والرجال يدسون رءوسهم على استحياء وينظرون كأطفال ضاعفت الرهبة من ملامحهم واعتقلت رغبتهم فى الضحك بل سرعان ما اندمجوا فى النغم وشملتهم حالة من الورع ؛ لولا أن صوت أذان العشاء فوق مئذنة جامع العصاروة والقريب جدا من موقع الكنيسة انتزعهم وسحب رءوسهم . سمعتهم يهرولون نحو المسجد ، وسمعت صوت أبى يقول للرجال إن القدّاس على وشك الانتهاء وإن الشيخ رضوان - على فكرة - يمكنه اللحاق بصلاة العشاء جماعة إن كان لا يزال على وضوئه .

وبالفعل ؛ لم يكن أبى وصحابه قد وصلوا إلى باب المسجد بعد حينما تسلل الشيخ رضوان منسلخا من الصف تاركا الشبان يكملون بقية الصلوات الختامية . اندفعت جريا لألتقيه عند الباب الكبير ؛ لكننى اتخذت طريقى تلقائيا إلى المسجد لأتوضأ بسرعة وكان المصلون قد انتهوا من أداء السنن واصطفوا خلف الشيخ الإمام عبد المقصود الجمال

ونكسوا رءوسهم يستمعون إلى ترتيل الإمام ؛ ثم كبَّر الإمام وانحنى راكعًا فتهاوت خلفه جميع الصفوف راكعة تسبح باسم ربها الأعلى . وقبل أن يتأهب الإمام لعدل قامته دوى من خلفنا صوت الشيخ رضوان المالكى صائحًا :

– «إن الله مع الصابرين !»

فتمهل الإمام حتى سمعنا صوت الشيخ رضوان ينوى فى اختصار : – «نويتُ . . الله أكبر . . الله أكبر» .

لحظتئذ تذكرت أن الشيخ رضوان هو الذى يقوم بدور المبلغ فى كل صلاة ، إذ تسجد الصفوف وتركع وتعتدل وتكبر بناءً على ترديداته المنغومة وراء الإمام ؛ وبالفعل ما كدنا نعتدل واقفين حتى رن صوته مدويا : ربنا اااا ولك الحمد .

المعادى – صباح الاثنين ٢١/يناير ٢٠٠٢

عيون القلب

أكثر ما أسعدنى فى شقتى الجديدة - فضلا عن كونها فى طابق علوى فى ضاحية جديدة متاخمة للمدينة - أن لها شرفة بمساحة لا بأس بها تطل على شارعين ؛ جانبى وخلفى ، وثمة شجيرات بين حشائش وعشب أخضر فى أكثر من رقعة فى الشارعين .

لكن أكثر ما أقلقنى فيها هو أن الشركة التى قامت ببناء هذه العمائر لحساب جمعية إسكان أهلية ، قد تركت الطوابق الأرضية كلها مفتوحة من جميع الجهات ؛ مجرد عمدان من الخرسانة المسلحة ، قيل لأن الجمعية حريصة على راحة السكان وتفترض أنهم جميعًا من أصحاب السيارات فرأت أن هذه المساحات يمكن استخدامها كحظائر للسيارات .

إلا أن الشبهات حامت بكثافة حول مجلس إدارة الجمعية وتأكدت باكتشاف اختلاسات كبيرة مما ألجأ محافظة القاهرة إلى حل مجلس الإدارة وتقديمه للمحاكمة ، ربما تمهيدا لترقية أعضائه إلى مناصب أعلى فى الدولة، وعينت مجلسا مؤقتا استخسر هذه المساحات فى السكان فقرر بيعها كدكاكين . وبالفعل تم بيع جميع المساحات المطلة على أى شارع عمومى ، لتتحول الضاحية إلى سويقة تجارية غوغائية لم ينج من صخبها إلا الشقق الجوانية المطلة على شوارع خلفية ضيقة كممرات للمشاة فحسب . صار للبوابين سطوة مرعبة، ولعيالهم الكثار ضجيج سافل يقضُّ مضاجع الموتى بضرب كرة القدم وصراخهم وشتائمهم لبعضهم البعض بأقذر الألفاظ . فضلا عن ذلك تحول البوابون إلى سماسرة لبيع الشقق والدكاكين ، واختراع حيل جهنمية تمكن المغامرين من اغتصاب الدكاكين المطلة على الشوارع الخلفية والاستيلاء عليها بوضع اليد بذريعة استعدادهم للشراء إذا ما طرحت الدكاكين للبيع فى مزاد علنى قادم

لا محالة . وتنحصر مهمة البوابين فى التوسط بين المغتصبين وبعض موظفى الجمعية للحصول على قطعة الحديد المرقمة المدموغة بدامغ الجمعية والتى بموجبها وحدها يحق لحاملها التعاقد على عداد كهربائى باسمه، مما يثبت ملكيته المبدئية للعقار ، وثمن هذه الحديدة يتراوح بين ألف إلى عدة آلاف من الجنيهات تدخل جيوب موظفى الجمعية . بهذه الطريقة تمكن أصحاب الدكاكين المطلة على الشوارع العمومية من توسيع دكاكينهم بالعمق لدرجة أن بعضها أصبح يحتل مساحة العمارة بكاملها .

أصبح من المألوف أن يصحو سكان إحدى العمارات من النوم فإذا هم يفاجأون بأن دكانا أو أكثر قد تم تقفيله فى غفلة منهم ، وتحول إلى مقهى أو مخزن أو ورشة . وهكذا كنت أضع يدى على قلبى كل يوم ، فكلما صحوت من النوم أتجه مباشرة إلى الشرفة أو الشباك للاطمئنان على أن الدكاكين تحت عمارتنا والعمارات المقابلة لا تزال مفتوحة كبوابة جحا ، تدخل إليها وتخرج منها من أى اتجاه إلى أى

اتجاه . وجودها هكذا كان يريحنى رغم أنها مملوءة بالرطش والطوب والزلط والقمامة من مخلفات السكان الذين تبين لى بعد شهر واحد من مجاورتهم أنهم جميعا أشد قذارة من هذه القمامة ، غير حريصين على أية نظافة ، بل يتخاذلون إذا عرضت عليهم أى مشروع للنظافة لن يكلفهم شيئا سوى وضع القمامة فى صفائح أمام شققهم ليمر الزبال ويلمها كل صباح ؛ يجدون من السهل عليهم ربط القمامة فى كيس من البلاستيك والتطويح بها من الشباك ليصك الأرض مطرقعا مثيرا للفزع ، وله أن ينزل فوق سيارة فيهشم زجاجها ، أو فوق دماغ أحد المارة فيشوه منظره . كما أنهم يستسلمون لسيطرة البوابين بشكل زرى مريب ؛ فتسيَّد البوابون ، أصبحوا كأنهم أصحاب الضاحية والجميع سكان عندهم . أما إن صاح أحد السكان فى طلب أحد البوابين فإنه لن يجده على الإطلاق لحظة احتياجه إليه ؛ لأن البواب إما يعمل نقاشا أو مبيضًا أو فواعليا فى عمارات وشقق بعيدة ، وإما يعمل سمسارا يقضى

النهار متجولا بين العمائر مع الزبائن الذين لا ينقطع لهم سيل . هم تشكيلة عجيبة من السكان لا يمكن اجتماعهم فى ضاحية واحدة أو عمارة واحدة لولا هذه العشوائية القدرية التى تم بها بيع وشراء هذه الشقق : العائدون من الإعارات كهولا فى آخر العمر ، أو الذين لم يعودوا تماما فلا نرى بلكوناتهم مفتوحة إلا فى شهور الصيف ، مومسات الخليج اللائى كن من قبل خادمات فى البيوت وفى الملاهى وقد عدن بسيارات فارهة ولهجة هوانمى مستعارة وسمجة تثير الغيظ وترفع الضغط من فرط زيفها وصفاقتها ، تجار الانفتاح الذين يكدسون فى محلاتهم بضائع مستوردة من اللبان والبسكويت .. إلخ إلخ . وجميعهم مغرمون بالصخب لا يهنأ لهم عيش إلا فى أواره المرتفع .

* * *

أكبر شبابيكى وأعرضها يطل على الشارع الخلفى ، أما البلكونة فتطل على الشارع الجانبى . ورغم أن ردهة الشقة اتسعت لكتبى الكثيرة جدا ،

ولمكتبى الكبير الأثرى بكرسيه الضخم الدوار ذى المسند العالى ؛ فإنها اتسعت كذلك لصالون كلاسيكى وأنتريه حداثى التكوين وتربيزة سفرة بمقاعدها ونيشها ، ولأجهزة تليفزيون وفيديو ومسجلات ، وللأولاد يذاكرون أو يشاهدون الفيلم والتمثيلية أو يستمعون لعمرو دياب ومحمد فؤاد وحكيم أو يتشاجرون بحدة لأسباب لاحصر لها . ولما كنت أطلب الهدوء وصفاء الذهن للقراءة والكتابة ، ولا غنى لى عن النارجيلة بنارها ودخانها وحجارتها ودوشة دماغها ؛ فقد قمت بتقفيل البلكونة بالخشب ، ملأت حوائطها بالرفوف على شكل عيون وخانات تتسع لأوراقى الخاصة ومسوداتى ، حتى صار منظرها كأرشيف المجلة التى أعمل بها محررا أدبيا . وقد صنع لى النجار بنكا صغيرا قصير القامة كبنك الجواهرجى وافق مزاجى الغريب بقعدته القريبة من الأرض حيث كل ما أحتاجه فى متناول يدى .

أول يوم جلست فيه فى هذه البلكونة بعد هذه التجهيزات كان المطر يهطل بغزارة . الشارع الجانبى

ضيق ، حتى ليبدو لى وأنا قاعد فى الركن فى البلكونة كأنه منور بين جدارين فى عمارة واحدة ، صف البلكونات المواجه لبلكونتى يصب فى بلكونتى ؛ ولهذا ظهر المطر كثيفا ومخيفا .

حينئذ رأيته مقبلا من بعيد ، بكامل هيئته التى أعرفها جيدا وأميزها من بين مئات من أمثالها : المعطف الطويل المصنوع من وبر الجمال يحمل لونها إضافة إلى لون الغبار والقِدم والبهدلة ؛ إذ هو لا يخلعه أبدا حتى فى الصيف وينام به فى أى مكان يغلبه النوم فيه ؛ البارات الرخيصة ، أرصفة المحطات ، المقاهى الشعبية . الكاب الكاروهات بلونه المزرق بلسانه الممدود فوق الجبين يخفى معالم الوجه مع النظارة الشمسية السوداء التى يدارى بها احمرار عينيه من فرط السهر والسكر والإرهاق . قامته الطويلة على قوام نحيل ، مشيته البطيئة الجذلة التى نجح بها فى إخفاء الوهن والترهل لرجل على مشارف السبعين من العمر . حنكه الأهتم غائر الشفتين إلى المدخل لا ينى يلوك شيئا ما ، لعله قطعة أفيون ،

بلحة جوز الطيب ، شيكولاته معجونة بمطبوخ الحشيش ، حبة فول سودانى من بقايا المزة التى استعان بها على احتمال طعم البراندى والروم والنبيذ وربما السبرتو الأبيض مخلوطا بالكوكاكولا . جيوب المعطف جميعا ؛ الخارجية والداخلية ، منتفخة كجراب الحاوى بأشياء غريبة لا يمكن اجتماعها إلا فى جيب يوسف باسيلى رئيس أرشيف الصور بمجلة أهل الفن الأسبوعية : فول سودانى ، كرملة ، بلح ، جوز الطيب ، منزول مكون من أصناف متعددة من أنواع العطارة لتقوية الباه ، دهان لإطالة مدة الجماع ، بطحة براندى مبططة مدخرة لوقت يعجز فيه عن الذهاب إلى البار ، بقايا شريحة خبز بفول وطعمية ، لاسة إضافية غير المفرودة تحت ياقة المعطف الواقفة ، بكرة خيط مشبوك فيها إبرة خياطة ومجموعة أزرار مختلفة الأحجام ، مقص أظافر ، مكنة لحلاقة الذقن ، مظروف حكومى أصفر مطوى على مجموعة صور تاريخية نادرة لسعد زغلول أو عرابى أو النحاس أو منيرة المهدية أو بديعة مصابنى مع الريحانى أو

فاطمة رشدى مع عزيز عيد أو الملك فاروق مع إحدى الراقصات الشهيرات ؛ لسوف يحتاج إليها واحد من المحررين الذين يسكرون معه فى البار ولا بأس أن يبيعها له بالسعر الذى يريد .

إن يوسف باسيلى خبير فى الصور الصحفية ، له مدة خدمة طويلة فى أعرق دور الصحف التى أنشئت فى أواخر القرن التاسع عشر فى مصر . بحاسته الأرشيفية أصبح يعرف أهمية الصورة بالنسبة للموضوع الصحفى ؛ بل أهمية وضع معين وزاوية معينة للصورة . أكبر مكتبة للصور كانت تملكها هذه الدار التى تخصصت فى المجلات المصورة ، تضم بلايين الصور النادرة الثمينة لجميع رجالات السياسة والفن والمجتمع من أواخر القرن التاسع عشر حتى أواخر القرن العشرين ؛ منها صور بيتية لحرم مصون التقطت سرا وفى غفلة من أصحابها ، صور فى الدواوين ، فى القصر الملكى ، فى مجلس الوزراء ، فى البرلمان ، فى العوامات ، فى النوادى ، فى الملاهى الليلة ، فى غرف النوم ، فى الشوارع ، فى

قاعات المفاوضات ، فى القطارات ، فى الحفلات فى المناسبات الرسمية وغير الرسمية . كل تاريخ مصر والمنطقة العربية ، السياسى والاقتصادى والفنى والأدبى والثقافى والاجتماعى والنضالى كان مترجما إلى صور فوتوغرافية ملتقطة بعيون حريفة وعدسات عالية الحساسية والجودة ، تم تصنيفها وتوزيعها على ملفات داخل عيون خشبية فى ردهة تمتد مئات الأمتار ، كل عين مكتوب عليها بيان بما فيها من شخصيات وصور ، حسب الحروف الأبجدية ؛ ثمة شانون كبير متكرر فى الردهة يحوى كروتا مشكوكة فى مخاريز بطول الأدراج . لم يكن يوسف باسيلى محتاجا لشد الدرج والتقليب فى الكروت ليعرف أن ملف سعد زغلول أو الملك فؤاد أو الخديو أو أم كلثوم أو شفيقة القبطية أو جورج أبيض رقمه فى الملفات كذا ؛ فلقد اكتسب دربة عامل جمع الحروف فى المطابع العتيقة ، يمد يده تلقائيا وهو مغمض العينين إلى الحوض الخشبى الممتلئ بالحرف المطلوب مخروطا من الرصاص . المحرر يكتب

على هامش موضوعه اقتراحا بالصور المطلوبة أو بدائل ملائمة ، فيذهب سكرتير التحرير التنفيذى بورقة من المخرج الفنى القائم بالتوضيب إلى يوسف باسيلى فى الأرشيف ، الذى يلقى على الورقة نظرة سريعة ليقول فى الحال إن كانت موجودة أم مفقودة أم هى استهلكت وجارى استبدالها ، إلا أنه سرعان ما يفتح ذهن السكرتير ومخرجه على بدائل للصور المطلوبة ربما كانت أهم وأجمل وأكثر إثارة وخدمة للموضوع .

حين ينفرد فى الأرشيف برهط من المحررين الشبان الذين يدعونه على كأس فى البار ويدعوهم على سيجارة حشيش أو وصفة جنسية ناجعة تضمن موت الزوجة فى دباديب الزوج ؛ ينجلى مع سخونة الطاسة فيقترح عليهم موضوعات شائقة تعتبر خبطات صحفية مع أنها لا تحتاج كتابة ، إنما تقوم على اختيار مجموعة من الصور الفوتوغرافية القديمة وربطها ببعضها بتعليقات ذكية تشرح المناسبات التى التقطت فيها . ذلك أنه قد حفظ مناسبات كل هاتيك الصور ،

وحرص على تدوين معلومات مهمة على ظهرها الأبيض بالقلم الرصاص ؛ فلم تعد الصور مجرد لقطات خرساء ، بل أصبحت تكاد تتكلم ، وأصبح خيال يوسف باسيلى قادرًا على أن يقول لك وهو يشير بأصبعه الطويل الغليظ الخشن إلى صورة شخص يكلم شخصا : إنه يقول له كذا وكذا حتى انظر ترى الانفعال على وجهه يثبت هذا ، أو إنه يقول لنفسه كذا ، أو : هو الآن ذاهب ليفعل كذا ، ليلغى المعاهدة ، ليسب ديك المندوب السامى ، ليحضر حفلة أم كلثوم ، ليسهر فى عوامة المهدية . . إلخ إلخ .

الصور كثيرة وبلا حصر . وهو أريب ناصح ، اهتدى إلى أصولها على النيجاتيف المخزون فى مظاريف خاصة مستفة فى أدراج ، كل مظروف مدون عليه اسم المصور وعنوان الموضوع وتاريخ التصوير ومكانه ، فيالهم من إداريين مهرة - هكذا يقول فى تبجيل - أولئك الشوام أصحاب هذه الدار . هذه المظاريف فى حد ذاتها ثروة تاريخية وصحفية

إضافية ، سيما وأن الكثيرين من أولئك المحررين الشبان وقتذاك أصبحوا الآن شخصيات بارزة كبيرة الحجم من أمثال فكرى أباظة وعبد اللطيف حمزة وتوفيق دياب ولطفى جمعة ومحمد التابعى وأمينة السعيد ومصطفى أمين ، وغيرهم .

بذريعة التجديد والإحلال اعتاد يوسف باسيلى التسلل إلى الحجرة الظلماء فى معمل التحميض بالدار ، ليكتشف محتويات كل نيجاتيف تحت الكشاف ، يقوم بتحميض ما يشاء من الصور بما يريد من مقاسات ، لتتجمع لديه مئات من أندر الصور ، يضيف نسخا منها إلى الأرشيف ويحتفظ لنفسه بنسخ تخصم أوراق تصويرها من النسبة المسموح بها للعادم . لو فتشوا بيته فلابد من أنهم سيعثرون فيه على أكثر من نسخة من هذا الأرشيف النادر الخطير . ولذلك فإن يوسف باسيلى حينما بلغ سن الإحالة إلى المعاش لم يكتئب ؛ فأى مجلة من المجلات العربية تسعى لخطب وده سيَّما وأنه كان فى السر يزودها كلها بمختارات من الصور تحقق بها

خبطاتها الصحفية وتثرى أرشيفها الخاص . إلا أنه استقر به المقام فى مجلة أهل الفن التى جرى تأميمها بعد الثورة وجىء لها برئيس تحرير من الضباط الأحرار . التحق يوسف بهذه المجلة رئيسا للأرشيف بمكافأة شهرية توازى حجم مرتبه السابق قبل الإحالة بما فيه البدلات والحوافز . كان يخلب لب رئيس التحرير بصور يبرزها من جيب معطفه عند اللزوم لتخدم مقالات رئيس التحرير التى يدبجها فى فضح العهد البائد . فيحصل بذلك على مكافآت إضافية تصرف فى الحال ، لتنفق فى المساء فى بارات وسط المدينة .

تبدأ رحلة النعنشة عصر كل يوم ، وتنتهى بانتهاء الليل كله . قد لا يعجبه جو البار فيكتفى بزجاجتين من البيرة ينصرف بعدهما إلى بار آخر يطلب خمسينة براندى ، فى خمسينة روم ، لا يوقفه عن طلب الخمسينة الثالثة إلا شروع البار فى التشطيب . يلم نفسه ، ينتقل إلى بار يعرف أنه يسهر حتى الصباح . قد يجده مزدحما لا مكان له فيه ، قد يجده خاليا من

أصدقاء يستريح إليهم ، قد يخطف كأسا على الواقف ويشارك فى الصخب بنكتة أو نكتتين ، بقهقهة أو قهقهتين ، قد يمشى مزمعا البحث عن بار بعيد مجهول ليقتحمه ويتعرف عليه ، قد يظل يمشى إلى أن يدركه الصباح على الطريق ليكتشف أنه ماض تلقائيا إلى منزله فى حى البساتين .

يسمى نفسه نقيب المشائين ؛ فلديه على المشى صبر ودأب عجيبان لم يتمتع بهما أهل الخطوة من العارفين بالله أمثال عمر بن الفارض . ليس يعرف الركوب مطلقا ، لا سيارات الأجرة ولا الأتوبيسات ولا حتى الدواب . وحتى إن أدركه فى الطريق أحد معارفه من أصحاب السيارات الملاكى وما أكثرهم فى دائرة أصدقائه ، يدعوه الصديق للركوب لكى يوصله إلى أى مكان يشاء ؛ فيعتذر بلباقة ولطف اكتسبها من كبار الشخصيات التى احتك بها فى بلاط صاحبة الجلالة . إلا أن التطجين البلدى المحبب إليه ما يلبث حتى يطغى عليه فيمزح مع صاحب السيارة بقفشات إباحية تتناول أعضاء الأم والأب بالتعريض ، ثم يطلق

ضحكته الطفولية الصافية وإن كان صوته الخشن يبتلع صفاءها بقهقهة عالية نشوانة منطلقة ، غير مبال إن هو تلقى ردًا أشد من قفشته ، أو فوجئ بلسعة على قفاه سريعة مع اندفاع السيارة ؛ فإذا هو يهرول خلف السيارة كأنه سيلحق بها ، فيما يصيح بأعلى جعيره اللطيف الصبيانى النشوان :

- «وله . . وله يا فلان . . يحموك فى كنكة هاها . . ا . . ا . . ى . . يلا يا مكفى على وشك هع هع . . فوت عليّ بكرة وأنا أعمل لك اللى فى بالك !؟؟ »

ويواصل المشى إلى بيته فى البساتين لا يكل ولا يمل . مشوار إن مشاه شاب قوى البنية ينام فى رهقه يومين على الأقل . أما هو فلا أحد يعرف متى يصل إلى بيته ، ولا متى نام واستيقظ ؛ لكنه فى الحادية عشرة صباحا من كل يوم لابد أن نسمع قهقهته فى طرقة المجلة ، ومشاكساته مع السعاة ، ومساومته لعامل البوفيه حول فنجان قهوة يقوم هو بنفسه بصنعه لنفسه . إنه المشاء الأعظم فى عصرنا ، الوحيد الذى

من المتوقع أن تراه فى أى مكان ، فى أية لحظة ، فى أى جو ، ومادمت توقعته فلابد من أن تراه فى الحال أو بعد برهة وجيزة ، بنفس الخطوة العهودة لا تزيد ولا تنقص ، لا يهمه مطر أو صقيع أو صهد ، لا تهمه حكومة فى الليل البهيم . على الرغم من سكره الدائم وغرابة مظهره عمره ما أمسكوه للتحرى . إذا استوقفه أى ضابط استيفاء فسوف يألفه فى الحال ، ربما تبادل معه النكات والقهقهات فهو مصرى صميم ، مدموغ بالمصرية الحميمة فى شكله ، فى لسانه ، فى صوته.

* * *

تأهبت – فى قعدتى فى البلكونة – لملاقاة يوسف باسيلى ومعرفة سر مجيئه إلى هذه الضاحية الجديدة . جعلت أستجمع فى ذهنى بعض الألفاظ المنتقاة اللاذعة لأعاجله بها ، من قبيل : « بتعمل إيه هنا ياد يا مرقوع أنت ؟! » ، متخيلا منظره حين يرفع رأسه ليفاجأ بى فى البلكونة ، ويقينى من أنه سيرد قائلا : «وحشتنى يا مضروب جيت ابرّد نارك هاهاها . . ا . . ى ! » .

إلا أنه كان أشبه باللقطة السينمائية التى تكبر كلما

اقتربت ثم تختفى عن الشاشة . ذلك ما حدث بالضبط ، ظل يقترب منذ بدء ظهوره فى أول الشارع الخلفى ، فما إن خففت لاستقباله مبتهجا حتى غاب عن ناظرى واختفى تماما .

ارتعشت مفاصلى وانتفض جسدى كله بعنف مفاجئ ، وقفت مرتكنا على حافة شباك البلكونة أبحث عنه فى كل اتجاه دون أن أعثر له على أثر . كان الوقت مموها مختلطا ، يأخذ صبغة المغرب مع أن الساعة لم تتجاوز الثامنة صباحا ، حينما دخلت ابنتى بالشاى كنت أهم بالنزول للبحث عنه فى ممرات الضاحية . لكننى جلست فى إعياء ، أسراب لا حصر لها من النمل راحت تتمشى فى عروقى فلم أعرف إن كنت بردانًا أم حرانًا ، كأن هطول المطر المتواصل قد تسرب تحت ثيابى ساخنا لاسعا . لقد تذكرت أن يوسف باسيلى قد مات منذ أكثر من عشر سنوات !! . .

لماذا إذن تذكرته الآن ؟! لا لم أتذكره بل رأيته رؤية العين بلحمه وشحمه ، بل شممت رائحته ، بل كان سمته ينحرف شيئا فشيئا عن الشارع الخلفى

ليحكم الانعدال نحو بلكونتى ، تكاد ابتسامته الهتماء تعلننى بأنه قادم خصيصا لزيارتى وأنه إن كان له فى هذه الضاحية الجديدة أحد فهو أنا على وجه التحديد وليس غيرى . وقعت فى بلبلة ، هل ترانى رأيته بالفعل أم أنه محض تخيل ؟ هل أضحك على نفسى ؟ . . نعم لقد رأيته بالفعل مجسدًا تماما بكامل هيئته . إن كان الأمر كذلك فلابد أن الخيال قادر على إخراج الصورة من تلافيف الدماغ ووضعها أمام العين فى حضور حى . ومع افتراض هذا ، فما السر فى حضوره الآن ؟! هل ذكرنى به المطر فى هذه الحصة الصباحية لأننى كنت كثيرا ما أراه أيام تشردى ماشيا فى الصباح المبكر تحت وابل من المطر فأستمد منه القدرة على الصمود ؟! أم ذكرتنى به هذه العيون الخشبية الشبيهة بأرشيف المجلة حيث قام هو بتصميمها للمجلة وهو يؤسس أرشيفا لها ؟! يجوز ، ويجوز .

رحت أرشف الشاى محاولا نسيان الأمر . جاءتنى الجريدة مبللة بقطرات المطر . دفنت رأسى

فى عواميدها وأخبارها فلم أفق منها إلا على صوت أذان الظهر فى زاوية مجهولة فى إحدى العمارات القريبة . كانت الشمس قد خرجت من الحمّام عارية على استحياء تبعثر الريح بشكيرا من السحاب الملون كان ملفوفا حول خصرها ووجهها المشرق .

* * *

كان من الممكن أن يشغلنى هذا الحادث - على طرافته - لوقت طويل لولا أن حادثًا أشد وأنكى قد وقع فى اليوم نفسه بعد لحظات . ذلك أن الشمس حينما استجابت لغزلى ، وبدأت تحوم حول بلكونتى وتشاغبنى بالظهور حينا والاختباء حينا آخر وراء مشربية الضوء الفضى ، رأيت من اللياقة أن أهبّ لاستقبالها وأدعوها للدخول فى ضيافتى بكاملها . اتجهت بناظرى إلى حيث تقعد هى على إفريز المشربية فى رشاقة قطتى الرومية . دفعت رأسى فى فتحة الشباك المحندق المطل على الشارع الخلفى . رفعت عينى محملقا فى الشمس مبتسما؛ فأجبرتنى على أن أغض الطرف عنها . نظرت فى الشارع

الخلفى ، ويالهول ما رأيت . لقد وقع المحظور . فوجئت بدكان فى العمارة المواجهة لعمارتنا كان مغلقا منذ مدة طويلة ودلت تحرياتى بواسطة البوابين أنه تابع للكوافير الفاتح فى العمارة المجاورة له ، والذى تغاضينا عنه رغم كثرة العرائس التى تجىء إليه بزفة عارمة ذات ضجيج . يومها قلنا لا بأس فالكوافير مهنة نظيفة على أية حال ، ونبهنا على الكوافير بعدم التصرف فى المحل إلا بمعرفة الجمعية وبعلمنا وإلا فسوف نبلغ عنه بأنه يغتصب محلين بدون عقود . فكيف ومتى حدث ما أراه الآن ؟ . .

الدكان مفتوح ، على واجهته لافتة كبيرة مكتوب عليها : ورشة النصر لكهرباء وميكانيكا السيارات لصاحبها الأسطى شريف . عدد من السيارات تحتل الشارع مرفوعة الأغطية عن المحركات ، ثمة صبيان بالعفاريت السوداء المزيتة يفكون ويربطون فيها ، ويديرون المحركات بأصوات زاعقة متوالية تزلزل السمع وتملأ الهواء بدخان أسود عطن الرائحة ، رجل ضخم الجثة ربعة القوام بكرش بارز يرتدى البنطلون

الجنز والقميص الكاروهات ، ويجلس على الرصيف العالى فوق كرسى من البلاستيك الأبيض ، يمسك بمبسم الشيشة ويشخط فى بلية وحمؤه وخيشة ، بصوت حلقى بلطجى ممطوط ، بألفاظ قبيحة مسممة تتوالى كالمدفع الرشاش بغير انقطاع .

تعكر دمى ، فار حتى صعد إلى نافوخى وسال على أذنى ورقبتى . ناديت البواب صارخًا كى يسمعنى هذا البلطجى المقتحم . وقف البواب تحت شباكى رافعا رأسه فبدا قزما خفيف الظل، وبدا أيضا أنه يعرف ما الذى سأقوله . أشرت إلى الدكان والسيارات والبلطجى قائلا بصوت عال :

- « إيه دابقى ؟! يطلع مين دا بسلامته ؟! »

رمقنى البلطجى بنظرة محايدة لا تعبر عن أى شىء ، ولم يعلق ، ولكن الشتائم المقذعة التى يوجهها لصبيانه ضوعفت بالكمية التى كان يريد أن يوجهها لى . جاءنى البواب عند البلكونة . وكان البلطجى فوق الرصيف المرتفع يرانا ويرى كل محتويات البلكونة كأنه جالس معنا ، يسمعنا ونسمعه

حتى فى الهمس . ومن المؤكد أنه سمع البواب وهو يحكى لى كيف أن هذا الأسطى من حى قريب للضاحية وأنه معرفة الكوافير الذى أجر له هذا الدكان ، وهو يعلم أنه سيفتحه ورشة ميكانيكا سيارات. قال أيضا إن الضابط الذى يسكن فوق شقتى ، وضابط المرور الذى يسكن فوقه ومهندس السنترال الذى بجواره ، كلهم شاهدوا افتتاح الورشة مساء أمس وبرطموا وزمجروا وسألوا عنى للتشاور فلم يجدونى وأنهم يطلبون الاجتماع بى اليوم . قلت للبواب :

- «وعلى إيه اجتماع ! ناولنى التليفون» .

وأمسكت بالهاتف لأبلغ رئيس الحى عن هذا الاستيلاء ، وبالمرة أبلغ شرطة المرافق عن وجود ورشة ميكانيكا وسط مساكن جديدة يمنع القانون افتتاح ورش فيها . ما إن سمعت جرس الهاتف يرن فى مكتب رئيس الحى حتى راجعت نفسى قائلا لها : من الأفضل أن أنتظر حتى أتفاهم مع زملائى السكان لعل بينهم من يستطيع حسم الأمر بسلطته .

فى المساء انتظرت أن يطرق أحدهم بابى لإقامة الاجتماع المزعوم ، غير أن أحدا منهم لم يفعل . تذكرت أن ثمانين فى المائة من سكان العمارة قد اجتمعوا فى شقتى قبل عام مضى واستدرجونى - باعتبارى أكبرهم سنا - لقبول رئاسة اتحاد الملاك فلم أقبل ولم أرفض ، لكنهم اعتبروا صمتى نوعا من القبول الخجل . رأيت الآن أننى يجب أن أقوم بمهمة رئيس اتحاد الملاك . اتصلت بهم واحدا واحدا ، جميعهم أبدى استنكاره ورفضه لوجود ورشة ميكانيكا فى أحشاء سكنهم ، وطالبونى بالتصرف نيابة عنهم حتى لو استدعى الأمر لرفع قضية فى المحكمة . قررت أن أفعل، طلبت رئيس الحى على الهاتف ، فى نفس اللحظة لمحت أحد سكان عمارتنا المتحمسين للشكوى يقف بسيارته أمام الورشة والولد البلطجى يجرى فيها بعض الإصلاحات . أغلقت الهاتف غاضبا ووقفت أتفرج على هذه المفارقة المزعجة . بعد برهة لمحت الساكن نفسه يلاطف البلطجى ، يشكره على ضبطه لمحرك سيارته و . . تسلم إيديك . شيعه البلطجى

بالتحية الحارة مؤكدا أنه دائما فى الخدمة وتحت الأمر .

بسبب هذا السلوك المريب ، وإدانة له ، لم أتخذ أى موقف لأسابيع طويلة . وفى مساء أحد الأيام هاتفنى الساكن نفسه قائلا :

- «عملت إيه؟ الولد دا لازم يمشى من هنا ! حيقرفنا فى عيشتنا وحنشم العادم بتاعه لحد ما نتخنق وعيالنا تعيا !»

اندهشت . قلت له بشىء من الغلظة إننى لم أفعل شيئا ولن أفعل ، وأغلقت الهاتف دون استئذان . فإذا به بعد حوالى ساعتين يطرق بابى ومعه عدد كبير من السكان . وفيما أدعوهم للدخول بادرنى هو قائلا :

- «حضرتك تصورت إنى بقيت صاحبه عشان شفته بيظبط لى الموتور ؟ . . لأ . . داهو اللى أصر . . أقنعنى إن الموتور فيه حاجه مش طبيعية . . سبته يتصرف . . لكن داشىء وداشىء . . لازم يمشى من هنا بأى شكل ! . . وآدى السكان أهم كلهم موافقين!»

أيده الجميع . تطوع أحدهم فقدم لى أرقاما سرية لهواتف رئيس الحى والمحافظ وسكرتير عام المحافظة ورئيس مباحث شرطة المرافق . زودنى آخر بعدة أسماء لناس مهمين يمكنهم مساعدتى . لكن ما إن خرجوا من عندى حتى هبط حماسى فجأة ؛ ربما لإحساسى بأنهم استراحوا لتوريطى وحدى فى المواجهة وبقوا هم فى الظل على علاقة طيبة مع الميكانيكى ليقولوا له عند الحاجة إليه : إن هذا الصحفى المزهو بمركزه هو الذى افترى عليك بدون علمنا . قلت لنفسى مبررا تقاعسى : إن التأنى واجب حتى أتأكد من موقفهم الحقيقى .

مرت أسابيع كثيرة دون أن أفعل شيئا ، مع أن منظر الورشة بسياراتها وضجيجها وعوادمها كان يجثم على صدرى يزهق أنفاسى . خلال هذه الأسابيع لم يتصل بى أحد من السكان ليسألنى ماذا فعلت ، فى الوقت نفسه لم يتصل به أحد ، بل علمت أن بعضهم كان يذهب إلى ورش بعيدة لإصلاح سيارته . السر فى ذلك ما لبث حتى ظهر ذات عصرية ؛ إذ انتبهت

إلى خناقة حامية أمام الورشة فأعطيتها كامل انتباهى ، فتبين لى أن هذا الميكانيكى تسبب بجهله وغشوميته فى إفساد طاقم شنبر جديد . فى يوم آخر انتبهت على خناقة أخرى ، لقد أفسد الدبرياج . أصبح من المألوف أن يلتقينى البقال أو الفاكهى أو صاحب المكتبة فيبادرنى قائلا :

- «على فكرة الواد الميكانيكى اللى قدامكم ده حمار ما بيفهمش أى حاجه فى الميكانيكا . . إوعى تخليه يمد إيده فى عربيتك ! »

هو إذًا سيئ السمعة من قبل أن نراه . مع ذلك فالسيارات لا تكف عن المجىء إليه ؛ ذلك أنه أقرب ميكانيكى للطريق السريع الذى تحدث فيه أعطال كثيرة . فى الوقت نفسه تبين لى أننى المتضرر الوحيد من وجود الورشة لأنها تكاد تكون فى قلب شقتى بدون أدنى مبالغة ، وعجبت غاية العجب من أصحاب الشقق الملاصقة للورشة كيف لم يقلقهم الدخان الأسود الذى تصبه فى غرف نومهم ليل نهار ؟!

وهكذا استيقظ غضبى وقررت أن أحارب هذه الورشة بدون هوادة . أمسكت بالهاتف ، طلبت شرطة المرافق متوقعا أن أجد جميع أرقامها مشغولة ، لكن لدهشتى رن الجرس من أول محاولة . شعرت بارتباك مفاجئ ، بدا لى أن شرح الموقف أشبه بكابوس ثقيل ، وأننى لن أتمكن من إثارة اهتمام أى مسئول ما لم أذهب له بنفسى ؛ فالمقابلة الشخصية لها لاشك أثرها الفعال . فاضلت بين الذهاب بدون موعد سابق والاتصال لتحديد موعد ، واخترت الاقتحام لوضع المسئول أمام الأمر الواقع .

غير أننى لم أذهب لسبب لست أدريه على وجه الدقة ؛ ربما لازدحام الوقت بالعمل ، ربما لفقدان الحماسة . فى هذه الأثناء لاحظت أن الميكانيكى البلطجى بدأ يزحف بسياراته إلى ما تحت بلكونتى مباشرة ليركنها فى انتظار دورها أو يترك صبيانه يعيشون فيها ، فأقف فى البلكونة وأنادى عليه فى صلف وغطرسة وخشونة :

- « إنت يا جدع انت . . شيل العربيات

دى من هنا بدال ما أنزل أولع لك فيها . .
فاهم ولا لأ ؟ . . تجرمه مش عايز ! » .

ففى الحال ، ودون أن يفتح فمه ، يسحب السيارات إلى بعيد جدا . ويتصادف أن أكون خارجا أو عائدًا بسيارتى ، فأفاجأ بأن سياراته تسد الشارع تمامًا ولابد من أن يستغرق وقتا فى سحب سيارة بعد أخرى واستعدالها فى أماكنها ليوسع لى برزخا أمر منه . هنا يصل غضبى إلى ذروته ، فما أكاد أزرُق من برزخ الخطر وأتأكد من أننى لم أحتك بسيارة أو رصيف ، حتى أفتح الباب وأنزل ، أفرش ملاءة الردح بأعلى صوتى ، أشيع له أقذع الشتائم ، أنذره بأن البلطجة ستورده موارد التهلكة ، وبأننى سأسجنه بإذن الله إن عاجلا أو آجلا . أصعد إلى شقتى ، أمسك بالهاتف ، أطلب المرافق ، ما يكاد الجرس يرن حتى أرانى قد وضعت السماعة ودخلت لأخلع ثيابى على زعم أن أتكلم بعد أن أتغدى وأهدأ . يدخل الليل فأنسى الأمر تماما ، أظل حتى منتصف الليل فى البلكونة أراه فى ضوء عمود النيون المعلق تحت لافتته جالسا على

الرصيف المرتفع يدخن الشيشة ويوجه صبيانه ، ويرانى بكامل هيئتى فى ضوء الأباجورة جالسا أقرأ أو أكتب . العجيب أننى بدأت آلف النيون فى مواجهتى وآخذ حس الورشة وأعتاد أشباح الصبيان والصنايعية وهم يتقافزون بين السيارات ويضيفون - أثناء نقاشهم - إلى معلوماتى معلومات جديدة لم أكن أعرفها عن الدينامو والدبرياج ، وآلات الجر و ما إلى ذلك .

على أن الأعجب من كل ذلك أننى دعيت ذات مساء لحفل عشاء فى بيت أحد أصدقائى بمناسبة عيد ميلاده ، فإذا بالصديق يقدم لى رئيس الحى شخصيًا ، ويقدمنى له ، فإذا برئيس الحى يعرفنى ويستقبلنى بحرارة ويقضى السهرة كلها بجوارى فى مرح وسمر ، لكننى فى النهاية انصرفت دون أن أفاتحه فى الأمر الذى سعيت لمقابلته من أجله . كيف حدث هذا ؟ هل تناسيت ؟ استنكفت ؟ استهيفت ؟ استعليت ؟ أيا كان السبب فقد عللت نكوصى بأننى اكتفيت بمعرفة الرجل حتى إذا ما طلبته بعد ذلك يستجيب ، وإذا ما حدثته فى الأمر يتخذ موقفا حاسما لصالحى .

إلا أننى لم أكلمه بعد ذلك مطلقا . كنت كلما انفجرت فى الزعيق للميكانيكى بسبب احتلاله للشارع كله ينتهى زعيقى - كالمعتاد - بالتهديد والوعيد . أما عند الشروع فى التنفيذ فيصيبنى التردد فالنكوص ؛ حتى لقد شعرت بالحيرة ثم الثورة على نفسى بسبب هذا التخاذل الزرى الغامض ، أروح أسائلها : هل أنا ضعيف أمام هذا الولد البلطجى ؟ وعلام الضعف ؟ على العكس إن باستطاعتى أن ألحق به بالغ الضرر إذا أخذت الموضوع بجدية فلماذا لا أفعل ؟! ما الذى يبعدنى دائما كلما شرعت فى التنفيذ ؟! أيكون هذا الولد قد أجرى لى عملا سحريا يكبلنى ويمنعنى من الإضرار به ؟! أم هل ترانى أدخره لوقت تحتاجه فيه سيارتى القديمة ؟! على العكس أيضا فإننى أرفض أن يعبث بسيارتى لأنى متأكد من جهله التام فى الميكانيكا والكهرباء . هل النكوص لأننى متسامح بطبعى ؟ إنى بالفعل قد أكون هكذا ولكن كيف أتسامح فى أمر يقض مضجعى ويقلقنى ويدمر صحتى ؟ . . لا . . لا . . لن أتسامح مطلقا ، على الأقل لأثبت لنفسى أننى رجل جدير باحترام نفسه .

أشرقت فى ذهنى فكرة ظننت أنها تريحنى وتحفظ لى كيانى ومظهرى ، سوف أكتب كلمة حادة - ألست صحفيا ؟ - لأنشرها فى أى جرنان ، أندد فيها بهذه الفوضى وأدعو المسئولين للتدخل لممارسة واجباتهم . إلا أن الغضب والانفعال وضعانى فى حالة غير صالحة لكتابة مثل هذه الكلمة ؛ فأجلت كتابتها إلى لحظة أكون فيها هادئا رائقا . إلا أن هذه اللحظة المرجوة لم تأت أبدا ، فالقلم الذى اعتاد الكتابة فى مسائل كبيرة وعواطف إنسانية عميقة يصعب عليه كتابة شكوى شخصية وإلا ما فشلت كل المحاولات التى جربتها لكتابة هذه الشكوى .

صباح ذات يوم ركبت سيارتى لألحق بموعد مهم . كنت متعجلا مكروبا . أدرت مفتاح المحرك . لم تنطق السيارة ، ليس ثمة من كهرباء . تعكر دمى وتشاءمت ؛ فأنا الذى اعتدت ركوب الفولكس واجن الخنفساء طول عمرى لم أتواءم بعد مع المازدا التى لم أعرف بعد شيئا فى تركيب محركها لأننى اشتريتها حديثا من أحد ضباط الجيش . اغتظت جدا لمجرد

شعورى بأننى أحتاج لهذا الميكانيكى الذى لا أريد أن أقيم معه أية علاقة بالمرة ، نزلت ، رفعت غطاء المحرك ، نظرت فى متاهته يائسا ، حركت كابلات البطارية وضربت فوقها بيد المفك . ثم ركبت وأدرت المفتاح فأضاءت اللمبات أمامى ولكن لا صوت ؛ فعرفت أن العيب فى المارش ، فأين مكانه يا ترى ؟ هذا ما لم أحاول معرفته ، فلقد أزف الموعد ولابد من ترك السيارة والذهاب فى عربة أجرة ، أنزلت غطاء المحرك ، أغلقت باب السيارة استعدادًا للانصراف . ما دريت إلا والميكانيكى يقف أمامى بكرشه وجسده الملآن :

-«فيه إيه يا بيه ؟ مالها العربية ؟»

ببوز ملوى ووجه مكشر أجبته بأن المارش فيه شىء ما فيما يبدو لى . قال : «اركب» . ركبت . قال : «افتح الكبوت » . فتحت . انحنى فوق المحرك وعبث بيده فى بعض الأسلاك . قال «كابل المارش سايب» ، وبأطراف أصابعه قام بتوصيل فيشة الكابل وثبتها بالضغط عليها ، قال : «دوَّر» . أدرت

المفتاح ؛ نطقت السيارة . جذب غطاء المحرك وأغلقه ، وجاء ، وقف بجوارى مستندا على الباب الذى لم أكن قد أغلقته بعد . ابتسم . لأول مرة ألاحظ أن وجهه طفولى خجول . بدا كابنى حين يكلمنى فى شىء يخصه . بدا أن خفق دمه خلف البشرة مألوف لى . قال بود وعشم :

- «حضرتك يا بيه فى الصحافة ؟»

- «أيوه أنا صحفى» .

- «حضرتك ما تعرفش واحد كان بيشتغل فى الصحافة زمان بتاع صور .. اسمه يوسف باسيلى ؟» .

ثبت نظرتى عليه وقد ألجمتنى المفاجأة . كدت أقول له إننى رأيته بعينى يمر من هاهنا منذ بضعة أشهر رغم يقينى بأنه مات منذ أكثر من عشر سنوات ، وشعرت بأننى قد أصبح صديقا لهذا الولد لما أنه يعرف زميل عمرى يوسف باسيلى الذى أحببته بعمق . أعاد سؤاله :

-«تعرفه يا بيه؟» .

لم تكن نظرتى قد غادرت وجهه بعد ، فسألته :

-«تعرفه أنت؟»

من جيب البنطلون الخلفى سحب بطاقته الشخصية وقدمها لى فى فرح شديد :

- «أبويا يا سعادة البيه .. أنا اسمى شريف يوسف باسيلى !!»

وارتعشت يدى على عجلة القيادة . نزلت . سلمت عليه فى حرارة ، وقد انتابنى ضحك هستيرى ، أغلب الظن لكى أصادر به رغبتى فى البكاء .

تمت - صقر قريش فى ٢٤/١٠/١٩٩٧

عمتى نَدْرِين

عمتى ندرين هى آخر من تبقى من عماتى السبع فى دار الضراغمة التى اتسعت على مدى قرن من الزمان وتفرعت أصبحت دورًا عديدة تفصل بينها حارات وسكك ودروب ومساحات محندقة أصبحت بلدًا قائما بذاته حول البلدة الأصلية المسماة قفلاطون على بحر نشرت فى شمال الدلتا . ورغم أن دور الضراغمة أصبحت بلدا كاملا من منتصف هذا القرن تقريبا فإنها لا تزال تشى - من مجرد النظر الخارجى - بأنها دار واحدة تسكنها عائلة واحدة وإن تعددت فيها الألقاب والأسماء الكبيرة التى ينتمى إلى كل منها رهط من الرجال والنساء .

وإذا كانت العائلة قد تم تفتيت اسمها إلى أسماء كثيرة وبيوت أكثر بحكم ازدياد النسل واتساع الأرض

لديهم ، فإن عمتى ندرين كانت بمثابة الخيط المتين الذى ربط كل هذه الدور ببعضها وكل هذه الأسماء فى حلقة واحدة . فعمتى ندرين تبلغ من العمر قرابة قرن وثلث القرن من الزمان على أقل تقدير ، نبتت لها أسنان جديدة تقرش عليها الزلط ، ولديها ولع بأكل العيش المحمص مع الجبن القديم والسريس والبصل الأخضر ، وتحبس بزردة الشاى وحجر الجوزة كأعتى الرجال . وليس فى البلدة كلها دار واحدة تخلو من بنت أو حفيدة لعمتى ندرين متزوجة فى هذه الدار أو تلك ، وليس ثمة من دار فى البلدة إلا ومنها عروس فى دار عمتى ندرين لأحد أبنائها أو أحفادها الكثار . ولقد نوديت بألقاب كثيرة ، منها : ياجدة ، يا خالة ، يا مراة خال ، يا أمه ، يا ستى ، يا حاجة . ولما كان رهط كبير من الرجال والنساء ينادونها بلقب عمتى ندرين فإن هذا اللقب شاع وطغى على جميع الألقاب الأخرى .

كل لقاءات عمتى ندرين حافلة بالمفاجآت المذهلة حتى لأقرب الناس إليها ، بل حتى للذين

ينامون فى حضنها من أحفاد الأحفاد . رجال كبار فى السن يلتقونها صدفة فى إحدى المناسبات : واجب عزاء مثلا أو صباحية عرس أو للمباركة بعودة أحد الحجاج ، وكل ما يعرفونه عنها أنها قريبتهم قرابة دم ؛ ولكن بمجرد الجلوس معها يتضح للواحد منهم أنها شقيقة لجدة أبيه من أمه ، أو أنها بنت خالة سته عزيزة ، أو أنها كانت متزوجة من جده العمدة الكبير أيام ثورة الأفندية ، أو أن الأرض التى يزرعها الآن بين عزبة المتينى وبحر نشرت هى فى الأصل أرضها . . أما إذا التقت أحد أبناء العائلة المقيمين فى البنادر منذ أجيال مضت فإنها تعطيه شجرة العائلة فرعًا فرعًا وورقة ورقة ، بما فيها الفروع التى اجتثت بالموت المبكر قبل نموها . وإنه لشىء بديع حقا أن يجد الإنسان نفسه فجأة وقد صار ورقة متدلية من فرع يدعى فلانا امتد من فرع فلان المتزوج فلانة بنت فلان الذى كان حطابا وزوجه تبيع الفسيخ والسردين ، وأنه فى سنة كذا حدث كذا وكيت فسافر عمك فلان إلى البلد الفلانية هربا من عمتك فلانة بسبب مشاكل

الميراث مما جعل عمتك فلانة هذه تعانده وتبيع نصف فدانها لأبيك لتدخل بذرة الشقاق بين الإخوة ؛ وستك جاللو ، جل الخالق يعنى كانت فى الأصل زوجة عمك الكبير لكن عمك فلان الصغير تزوجها بعد موت أخيه فأنجب منها فلانا وفلانة اللذين يعيشان الآن فى الإسكندرية .

إدارة المحفوظات بحى القلعة فى القاهرة أضيق من أن تتسع لكل ما فى ذاكرة عمتى ندرين من تفاصيل وثائقية دقيقة . حكت لى مثلا تفاصيل قائمة العفش التى دخلت بها ملك الأسكندرانية على جدى الكبير عبد العزيز ضرغام ، وكيف أن عملية الانفصال بينهما - بعد زواج مستحيل دام عشرين عامًا بغير خلفة لعيب فيها - تعطلت شهورا طويلة بسبب اختفاء ملعقة فضية مثبتة ضمن قائمة العفش ، وقد أصر أهلها على تسليم الملعقة نفسها ؛ مما اضطر جدى عبد العزيز - وكان دماغه أنشف من أدمغتهم جميعا - إلى أن يأخذ ملعقة من الطاقم ويسافر بها إلى القاهرة ليصنع مثلها فى إحدى ورش الفضة فى خان الخليلى ، وسلمها

لمطلقته فى مؤتمر عائلى كبير شهدته المندرة الكبيرة التى كانت مطرح هذا البيت الذى نجلس فيه الآن ، وكانت مطلقته - اسم الله على مقامك - تجلس مطرحك الآن على كنبة استانبولى من أملاك العائلة لا تزال بقاياها ملقاة فوق سطح دار جدك عبد العزيز الصغير فى شرقى البلد . قال جدك عبد العزيز ضرغام الكبير لمطلقته : «ياحاجه مَلَك أنا أدفع كل ممتلكاتى لإرضاء من ليس لها نصيب فى العيش معى تحت سقف واحد وظروف واحدة ، فهل لك من مطلب آخر قبل أن يفسخ المأذون عقد الزواج؟» .

منذ طفولتى لم أجد بين أهلى كلهم ، فى بلدتين متباعدتين ، من يشعرنى بأننى حقا من عائلة كبيرة ذات مهابة تستحقها عن جدارة ، سوى عمتى ندرين ، التى تحنو علىّ بصورة خاصة فضلا عن حنوها على كل من يمت إليها بصلة قربى بوجه عام . لهذا كنت أسافر لها من قريتنا كل إجازة لأجد عندها ما لم أجده عند أحد على الإطلاق ، لدرجة أننى اعتبرت معرفتى بها مكسبا واكتشافا عظيمين . هى التى عرفتنى

بنفسها . يومها كنت - أنا التلميذ فى السنة الأولى الابتدائية - ذاهبا فى الأصل لزيارة شقيقتى فى قرية قفلاطون ، التى كانت قد تزوجت حديثا من أحد أبناء عمتى فريدة شقيقة عمتى ندرين الصغرى ، وهما معا تقولان لأبى : يا ابن خال . وكانت جدتى لأمى - المقيمة فى مدينة فوة - قد اشترت لى طربوشا وبنطلونًا قصيرا وقميصا أفرنجيا وسترة وشرزا من الصوف بمناسبة قبولى بالمدرسة الابتدائية . . فلبست كل ذلك أثناء زيارتى لشقيقتى . قوبلت بحفاوة بالغة من عمتى ندرين التى شملتنى بحنان دافق أنسانى كل شىء حتى شقيقتى ؛ حيث أخذتنى فى حضنها كأنها كانت تبحث عنى منذ قرون طويلة مضت ، صارت تربت على ظهرى ، تملس على شعرى ، تنفض الغبار عن طربوشى وسترتى وحذائى مهمهمة بصوت كمواء القطط :

-«مصمص له يرجع لأصله! »

ردت عمتى فريدة - حماة أختى - وهى ترمقنى فى إعزاز :

- « ما هو على أصله من زمان يا اختى !»

وشرحت لى أختى معنى العبارة وهى تفطرنى بالقشدة واللبن الرايب والبيض المقلى فى السمن . فهمت من شرحها أن البدلة التى أرتديها ذكرت عمتى ندرين بأيام العز حين كان جدى وأعمامى الموظفون فى الحكومة يزورون أهلهم فى قفلاطون متقمطين بالبدل والطرابيش ويركبون الكارتات والحناطير ، وهو منظر اختفى تقريبا بعد رحيل أعمامى الأفندية وتقاعُد أبى فى البلدة مكتفيا بالجلباب والعباءة والطاقية .

منذ تعرفت على عمتى ندرين أصبحت أعرف الكثير والكثير عن عائلتى المعمرة فى بلدتين . بل إننى - وياللعجب - لم أكن عرفت شيئا عن أبى نفسه إلى أن حكت لى تاريخه من طقطق لسلاموعليكم ، بجميع زيجاته الفاشلة والوظائف التى شغلها وخلافاته مع أولاد أعمامى حول الميراث وكيف انتهت ، بل وكيف صرف أبى كل مدخراته من الميراث على عضوه الذى حيره طول عمره بين أشكال وألوان من

النسوان البندريات ، وكيف أن الله أكرمه بأمى الصغيرة لتنجب له الأولاد الكثار ، جاءته خلفة الذكور التى بحث عنها طويلا بين زيجاته ولكن بعد أن نفدت الثروة وضاعت الأرض التى كانوا سيفلحونها .

أحببت عمتى ندرين ، باتت فى نظرى هى شجرة العائلة التى لم أكن أعرف عنها شيئا يذكر ، ما إن أراها حتى ينبعث فى داخلى شعور قوى بالعزة والعزوة ، وأستشعر هيبة رجال تهتز لهم أركان الدنيا ويهرب الفقر والكساد فارًا من أمامهم أينما ذهبوا ليحل الخير ويعم الدفء وتنحل جميع المشاكل بكلمة واحدة من أحدهم . كانت نظرتى إلى ذلك رمزا للحب وللحنان تسبغه على مساحات عريضة جدا من البيوت والناس والحيوان وتناغى به الشمس والقمر والمطر فى أغنيات يقشعر البدن من كلماتها وأنغامها الفطرية ، تملس على جسد المحسود ممسكة بورقة وهى ترقيه بتعزيمة ترتعب عين الحسود من كلماتها فتفر منسلتة من جسد المحسود تغادره إلى غير رجعة مخلفة فى حلق عمتى ندرين تثاؤبا قويا تطلق منه عواءً رهيبا .

كل الناس تعرف وتتأكد أن عين الحسود تعمل لرقيا عمتى ندرين ألف حساب وتتردد طويلا قبل أن تتطفل - بله أن تقتحم - على أى ولد من عيالها أو زرع من زروعها أو محصول من محاصيلها . تنخفض عين الحسود إذا مرت بجوار شىء يخص عمتى ندرين؛ بل إن الحسود يستعيذ بالله من شر عينيه إذا ضبط نفسه متلبسا بنظرة غير صافية يتضح له أنها تخص عمتى ندرين . حدث أن تسلل ثعبان إلى برج حمامها وابتلع فرخا سمينا انحشر فى حلقة فتسمر فى مكانه دائخا زورانًا عاجزا عن التنفس والحركة ، إلى أن أدركته عمتى ندرين فخرطته بالفأس كما تخرط الخيار الشائخ للأوز . شاع الحادث ، تجاوز بلدة قفلاطون عابرًا بحر نشرت ومصرف نمرة تسعة وترعة السلمونية وحصة الغنيمى وعزبة الطوال ووصل إلى دارنا فى البلد ؛ فضحك أبى وقال إنه لاشك ثعبان غشيم والمؤكد أنه غريب عن البلد والغريب أعمى ولو كان بصيرا . إلا أن البلدان المجاورة كلها أكدت أن تعزيمة عمتى ندرين التى ترقى بها الحمام صبح مساء

كان سرها باتعا فخدر أوصال الثعبان لينتهى أجله على يديها .

حدث كذلك أن مر الحاج بيومى المزين على ساقية عمتى ندرين وهى دائرة ، حانت منه التفاتة إلى الثور المعلق فى الساقية فأبدى - بينه وبين نفسه - استحسانه له وقرر فى الحال أن يجىء ببقرته من غد إلى هذا الثور العفى ليعشرها لعلها تنجب ثورا مثله . ولكن شيئا من اللهيب سرى فى ساقيه وجنبيه كاد يشعل فيه النار ، فتلفت حواليه لعله يستكشف حريقا مجاورًا فيسعى لإطفائه ، فما رأى سوى عمتى ندرين مقعية تحت شجرة التوت تشخلل بيد الفرقلة لتنذر الثور بأنها قائمة على رقابته حتى لا يتراخى ولا يمكر . كاد الحاج بيومى يقع من طوله ، دفن رأسه بين كتفيه مغمغما : يا سابل الستر استر يا رب ، ومضى مسرعا كالهارب بسريقة ، لكنه لم يكد يمضى خطوتين حتى تعثر الثور وانكفأ على بوزه ، فإذا بعمتى ندرين تنتفض قائمة كالفهد فاردة ذراعيها تتلقى رقبة الثورقبل أن تجىء تحت ، تمكنت من رفع ساقيه

الأماميتين أقالته من عثرته بكفاءة تحسد عليها . ولم تكن قد لاحظت الحاج بيومى أو شعرت به ، لكنها ما كادت تتحسس ركبتى الثورحتى فوجئت بالحاج بيومى يهرول نحوها وينكب على يديها لثما وتقبيلا مرددا فى ارتعاد :

- « سامحينى يا حاجه ندرين ! مكانش قصدى والله العظيم ! كل ما فى الأمر إنى فكرت بس إنى أجيب بقرتى تعشر منه ! لكن أنا غلطان لك ! ياريتنى ما فكرت الفكرة دى ! اعملى معروف أنا فى عرضك ما تزعليش منى ! سامحينى ! المسامح كريم !!»

حينئذ فحسب أيقنت أنه نشّ الثور عينا ، فدفعته بقبضتها فى صدره بقوة صائحة فى وجهه بنبرة رهيبة :

- «النهارده الخميس !خمسه وخميسه !يا عين يابصاصه تندب فيكى رصاصه ! يا عين يالئيمه تتخزقى بالبريمه ! يا عين يا مفنجله تتخلعى بالمنجله ! يا عين يا متقنطره تتحشى بالشرشره! رقيتك يا شاب من كل من هب ودب ! ومن عين كل اللى شافوك ونضروك ولا صلوش على الحبيب النبى !!»

يومها عاد الحاج بيومى المزين إلى داره يجر ركبه من فرط الإعياء والهزال كأن وطواطا مصّ جميع دمه فتركه كمصاصة القصب المتهدلة الباردة . رقد على الفراش يجضّ ويوحوح عاجزا عن الكلام المفهوم والحركة ، يتعنّى دما ، وبعد شهر من العذاب الأليم توكل على الله ومات دون أن يعرف له الحكيم طبًّا ولا دواءً .

ليس هذا هو جانب القسوة الوحيد فى عمتى ندرين ، إنما هناك جانب تتحول فيه إلى حريق من القسوة لا يحتملها بشر . ذلك هو ما يختص بالتقصير فى أداء الواجب . إن من يقصر فى أداء الواجب يا ويله يا سواد ليله من عمتى ندرين ، كل ما فيها من حنان يفور دفعة واحدة ويتبخر ، تصير قيظا منصهرًا ينصب على دماغ المقصر فيسلخ جلده وقد يزهق روحه . حدث أن كنت فى زيارة لها فى إحدى الإجازات الصيفية مزهوا بنجاحى وانتقالى إلى السنة الثالثة الابتدائية ، فإذا بها تكاد لا تلحظ وجودى ؛ حيث كانت تتحدث لمن حولها فى غضب عارم ، تهدد وتتوعد . كانت شخصية مختلفة عن التى

ألفتها ، لحظتها فحسب انتبهت إلى أن وجهها أشبه بالحصير البالى : أعواد متعرجة ملتحمة ببعضها بخيوط واهية مترهلة ، طويلة الصدغين مسحوبة الفكين رهيفة الشفتين واسعة العينين بحول خفيف الوطء ، فى نظرتها حدة ، فى لسانها خشونة كالمبرد ، نحيفة البدن صلبة العظام جارمة الأطراف طويلة القامة على عكس عمتى فريدة الممتلئة البيضاء الميالة إلى القصر . سألت عمتى فريدة عن السبب الذى يغضب عمتى ندرين كل هذا الغضب . قالت لى إن طفلا من أخيها الكثار قد غرق فى العام الماضى فى بحر نشرت وهو يستحم مع رفاقه حيث جرفته مياه الفيضان ، انتهى أمره منذ عام كامل . قلت فى دهشة : واليوم تذكرته عمتى ندرين فغضبت ؟ إذن فمن هى تلك التى تهددها ؟!

قالت عمتى فريدة وهى تعتقل ابتسامة حزينة مشاكسة :

-« أصل الحكاية أن الحاج عبده زوج مسعودة بنت خالتنا مات اليوم !»

-«ولكن عمتى ندرين تهدد من الآن ؟!»

-«مسعودة بنت خالتنا!!»

-« ما ذنبها؟!»

- يا ولدى ! الموضوع وما فيه أن مسعودة بنت خالتنا لم تجئ تعزينا فى ابن أخينا الذى غرق فى العام الماضى ! »

-« يا . . ا . . ا . . ه ! تشيل الزعل عاما كاملا؟»

-«موت الحاج عبدة فكَّرها !»

نظرت إلى عمتى ندرين فى دهشة . كانت لا تزال تدمدم :

- «حاوريها! حاعلمها الحزن معناته إيه ! حانتقم منها المره اللى ما بتستحيش دى ! إن ماوريتك يا مسعودة يا بنت هنية العجرية ما ابقاش ندرين الضرغام ! هاتى يا بنت الملس والجلابية السوده والشكربين !»

هكذا نادت على أختى فقالت عمتى فريدة :

-«خلاص بقى يا ندرين يا اختى مالوش لزوم ! اخزى الشيطان اعملى معروف!»

صرخت عمتى ندرين فى أختى :

-«هاتى الملس يابت!»

أتتها أختى بما طلبت . لبست هدومها على عجل . هبطت السلم الطينى فى حذر وحرص . اشتعل خيالى .شغفت بمعرفة كيف ستنتقم عمتى ندرين من بنت خالتها مسعودة التى مات زوجها اليوم؟! وهل يصح أن تنتقم من بنت خالتها يوم موت زوجها ؟! لماذا لا تؤجل ذلك ليوم آخر ؟! . .

منفلتًا من أيدى شقيقتى وعمتى فريدة نزلت مسرعا . لحقت بى شقيقتى على الباب ، همست فى أذنى بنبرة تحمل معنى الفجيعة :

- «ارجع يا مجنون !حتروح فين؟!»

- «أتفرج على عمتى ندرين !»

- «بلاش ! طاوعنى أصل خالتك مسعودة مش مخلفه صبيان ! كل خلفتها بنات ! ولو انت ظهرت قدامها فى ساعه زى دى حتفكرها بالصبيان اللى اتحرمت منهم ! حتنقهر !»

ضحكت ساخرا من هذا المنطق البدائى الساذج ،

لكننى جاملت أختى قائلا إننى سأتفرج من بعيد لأرى كيف تنتقم عمتى ندرين من خالتى مسعودة رغم المحنة التى هى فيها ، بلعت أختى ريقها :

- « إنت فاكرها حتتعارك ؟ لايا عبيط !»

جريت وراء عمتى ندرين . دخلت وراءها دار خالتى مسعودة . كان الحزن مخيما على الدار ، وبعض رجال العائلة مقعين فى حزن وصمت تحت شباك الدار فى الشارع فى انتظار لحظة الدفن بعد صلاة العصر .

تربعت عمتى ندرين فى حوش الدار . جاءت خالتى مسعودة وبناتها بثيابهن السوداء وتربعن بجوارها ورحن يمسحن الدموع فى صمت . .

-«البقية فى حياتك يا مسعودة!»

-« ما نجلكيش فى وحش يا اختى ! الله جاب الله خد الله عليه العوض ! حنعمل إيه ؟! إيه اللى حنعمله ؟!» .

رأيت العفاريت تتنطط على وجه عمتى ندرين وهى ترمقهن بنظرات نارية تطق الشرر فيلمع فى ضوئه

خبث شديد ثم خلعت طرحتها وراحت تلوح بها فى الهواء على إيقاع العدودة الفاجع :

-«عزى المعزى وكَسَّر الجره !
مفيش ولد ياخد العزا بره !»

بمجرد ذكر الولد هاجت شجون خالتى مسعودة فى الحال ، تذكرت حرمانها من خلفة الصبيان ، وتمنت - لاشك طبعا - أن لو كان لها ولد يستقبل المعزين فى أبيه ، فإذا بهذه المرأة التى كانت منذ برهة وجيزة تتقبل أمر الله بحكمة وهدوء وقوة أعصاب ، قد شبت النار فيها ، فأطلقت صرخة ملتاعة ، جاوبتها صرخات البنات . وانبرت عمتى ندرين بفجيعة حريفة متقنة :

- «ندامه على اللى راح ما خلف!
شبه الحمام لا باض ولا ولف!»

فاندلع الصوات بصراخ أكثر حدة . وواصلت عمتى ندرين :

- «قليل الولد ع المغسله قلُّوه !
حسه انقطع من ساعتن ودوه!

قليل الولد ع المغسله اتدلى !

حسه انقطع من ساعتِن ولى !»

تمدد الصوات الصارخ، جاء من قاع الحسرة والقهر يضرب الرءوس يشرخها . وعمتى ندرين تصب النفط على اللهب :

-« قليل الولد قال مين يعززك يا راس ؟

يا ترى ولادى ولاَّ ولاد الناس ؟!

قليل الولد قال مين يعززك يا عين ؟

يا ترى ولادى ولاّ ولاد الغير ؟! »

واشتعل الحريق ، صارت خالتى مسعودة وبناتها يلطمن وجوههن بحرقة ، يلطخن وجوههن وشعورهن بروث الماشية ، يعضض أيديهن ، يخربشن بشرات وجوههن بأظافرهن . ركبهن الجنون ، أنا الآخر انتقلت إلى العدوى فصرت أبكى وأصرخ فى رعب مثلهن . أما عمتى ندرين فقد لمع فى عينيها شعورهن أنثى فى لحظة اكتمال نشوتها ، فأمسكتنى من رسغى قائلة :

-«ما تخافش يا حبيبى تعالى أروحك !»

سحبتنى ومضت ، تاركة خلفها حريقا من الحزن الجنونى المتفجر لا سبيل إلى إطفائه . العجيب أنها فى الطريق كانت تمسّى على الناس وتعافيهم بالعافية وتُسعد مساهم فيما هى تبتسم بوجه رائق كأن شيئا لم يكن .

المعادى - صقر قريش - فجر الأحد ١٨ يوليو سنة ١٩٩٩

مجاذيبُ قطة

منذ أن تاب الحاج أحمد سعيد الصعيدى عن شغل «الخطيف» وقطع الطريق ليلا على خلق الله كانت توبته نصوحا بحق ، لقد تاب بأثر رجعى بات يكفر عن ذنوب سابقة ، يؤدى الفروض الخمسة فى أوقاتها بدقة ، ثم إنه حج إلى بيت الله بصحبة زوجه ، وأصبح مضرب المثل فى حى قايتباى والدراسة ومنشية ناصر على الأمانة والتقى والورع . حين يستمع إلى القرآن الكريم - المرتل أو المغنى أو المقروء فى خطبة الجمعة ودرس العصر - تدهمه الآيات التى لم تكن تطرق باب قلبه من قبل فإذا هو يقشعر وينتفض كالمقروص فى موضع موجع حتى ليظن من يجاوره فى القعدة أن سقفا وقع عليه أو ثعبانا قرصه لولا أنه يتبع انتفاضته بكلمة «حق ! اللهم

غفرانك !»، وقد تنهمر الدموع من عينيه بغزارة ، وقد تظل تترقرق فى المآقى لوقت طويل . ورغم أنه مشغول من صبيحة ربنا إلى قرب صلاة العشاء بفرشه فى سوق الخضار يناكفه الزبائن ويساومونه على الملاليم التى يكتفى بها كمكسب جزاء عرقه فى شراء البضاعة وبيعها ، فإنه أول من يدلف إلى عتبة جامع قايتباى قبل مجىء المؤذن نفسه ، حتى خادم الجامع الذى يناط به فتحه عند الصلاة وإغلاقه عقبها مباشرة اعتاد أن يراه قاعدا فى انتظاره على أحد صدغى الباب ذى الدرج الرخامى المهيب . هذا فى الأيام العادية أما فى شهر رمضان فإنه يأتى قبل أذان المغرب بنصف ساعة على الأقل وفى سيالته حفنة من التمر يوزعها على من يلتقيه لحظة الأذان ، حتى إذا ما انتهى من تناول الفطور مع زوجه وعياله غادر الطبلية ممسكا بكوبة الشاى يشربه واقفًا على عجل ليلحق بصلاة التراويح من أولها .

فترات انتظاره على باب الجامع هى السبب فى قيام هذه العلاقة الحميمة بينه وبين هذه القطة المتعبدة

مثله بل لعلها أشد منه ورعا وتقى . طول عمره لم يكن يحب القطط ولا يطيقها فى بيته إذ إنها فى نظره خسيسة غدارة ، وعلى رأى المثل الشائع : تأكل وتنكر ، وليس عندها مثقال ذرة من وفاء الكلاب وارتباطها بأصحابها والدفاع عنهم وقت اللزوم ، القطة لا تتورع عن خربشتك حتى وأنت تقدم لها الطعام بيديك ، لا ترعى للبيت حرمة ، تخطف - بلا رحمة - الدجاجات المحمرة وتولى هاربة ، تعتدى على أى طعام تصادفه فى طريقها وتقفز وتمزق الملاءات وأوشاش المخدات والكراسى ، تتراخى - مع ذلك - فى صيد الفئران . إلا أن الحاج أحمد سعيد برغم ذلك يخشى بأس القطط فلا يقسو عليها مهما فعلت ؛ ربما ليقينه من صدق ما سمعه من أحد المشايخ من أن أرواح الموتى حين تغادر أجساد موتاها تنطلق حائرة فتتلبس أية قطة أو أى مخلوق يصادفها ، وعلى هذا فمن المحتمل أن تكون هذه الروح روح بنى آدم تقى عارف بالله .

كثيرا ما كان يحنو على بعض القطط الضالة حين

يراها تتسلل إلى بيته وتقعى فى مواجهته فى ثقة وثبات كإمبراطور مهاب منجعصة برقبتها إلى الوراء تروح تنقل نظرتها فى عظمة ووجل وترقب ، وحينما يعطيها الأمان تغمض عينيها وتهرُّ فى صوت خفيض رتيب كان يفسره بأنه لابد من أن يكون تسبيحا بحمد الله . وكان يصرخ فى ولده فى فزع إذا همَّ أحدهم بقذفها بفردة الشبشب أو ضربها بالعصا جزاء حركة خسيسة فعلتها ، وينبه دائما إلى أن الملائكة تدافع عن القطط ، وأى عدوان على أى قط لابد من أن يعاقب الإنسان عليه فى الحال عقابا رادعا قاسيا ؛ فالسلوك الأمثل إذن هو أن تهوش القط بحركة ما حتى يلوذ بالهرب ويعفيك من ذنبه.

أما قطة جامع قايتباى فإنها تكفلت بتعميق العلاقة بينه وبين جميع القطط . المرجح أنها - كما أفتى الأستاذ حمدى الشامى الموظف بمصلحة تحقيق الشخصية وأحد زبائن مقهى إبراهيم الغول المواجهة للجامع - لم تكن مصرية ؛يعنى ليست من القطط الصايعة ؛ فالقطط المصرية ليست بهذا الجمال

الساحر : الخطوط ، والألوان ، والعينين الخضراوين، ولا بهذه النظافة ، هذه الوداعة ، هذه العفة ، هذا الاحترام للنفس ، هذه الجاذبية التى تدفعك لاحتضانها وتقبيلها وتمرير اليد على فروتها الناعمة ، هذه الشخصية القوية إلى حد أنها لا تفزع من أحد ولا تنط ولا تصاحب القطط الضالة بل تترفع عليها وتنظر لها بأنفة وتأمل حيكم ، لا ، إنها لابد من أن تكون قطة سيامية أو رومية أو من جنس أرقى والسلام ؛ يعنى بنت ناس متربية على الغالى ، ولابد من أنها تاهت من أسرة كريمة ، نزلت من السيارة مثلا أو غافلت طفلا يصاحبها من العائلة وتجولت فشردت فتاهت فأبقت على احترامها لنفسها ، لم يغادرها تحضرها ، ظلت على سلوكها المطبوع تنتظر الأكل حتى يقدم لها وإلا فإنها لا تسأل عنه مطلقا ، وحين تشعر بالرغبة فى قضاء حاجتها تذهب إلى المكان الطبيعى ، إلى دورة المياة تترك فضلاتها الضئيلة الجافة فى فتحة المرحاض كأى كائن متحضر عاقل ، فإن لم تجد المرحاض فإنها تنتحى ركنا بعيدا خفيا ،

وإذ تنتهى تقوم بردم فضلاتها بالتراب ، تظل تشمشم حتى تطمئن لاختفاء الرائحة تماما.

هكذا قال الأستاذ حمدى الشامى ، وأيد كلامه رواد المقهى الذين اعتادوا انتظار موعد الصلاة مع فنجان القهوة وكرسى الدخان . .

لكن الحاج أحمد سعيد الصعيدى نظر إلى الأمر من زاوية أخرى ، فما دام هناك جنس أرقى من جنس حتى فى القطط والكلاب والحشرات وجميع المخلوقات ؛ فلابد بالتالى من أن يكون هناك قط أفضل من قط ، قط متشرد جربوع وقط ابن ناس طيبين نظيف جميل مؤدب ، قط دنىء و قط عفوف ، قط ماكر خبيث وقط على نياته أبيض القلب ، قط شرير وقط خير ، قط كافر وقط مؤمن ؛ ومن ثم فهذه القطة مؤمنة بل ودرويشة ، تؤدى فروض الصلاة . وإذا كان المسلم هو من سلم الناس من أذاه فإن هذه القطة مسلمة من شوشة رأسها إلى أظافر قدميها . الحاج أحمد متأكد من هذا إلى حد اليقين بعد مراقبة دامت شهورا طويلة . .

ما من مرة ذهب فيها لأداء الصلاة فى الجامع إلا ووجدها قد سبقته وتمددت على الصدغ الثانى لبكية الباب وهو أشبه بعمود مربع مغلف بالرخام . يجلس على الصدغ المقابل يتأملها ، حتى إذا ما ارتفع صوت المؤذن فوق المئذنة صائحا : الله أكبر ، تصحو كل جارحة فيها ، ينتفش ريشها وتتحفز هى محركة رأسها مع انديناح صوت المؤذن ، منتبهة مطرطقة الأذنين كأنها تستوعب كل كلمة من مفردات الأذان ، وتهر ، كأنها تطلق الدعوات والابتهالات المصاحبة للأذان ، يكاد الحاج أحمد سعيد يميز فى هريرها عبارات : الله أعظم والعزة لله !يا أكرم من سئل ! اللهم آت محمدا الوسيلة والفضيلة . . إلخ .

ما أذهل الحاج أحمد وجعل فروة رأسه ترتفع تحت العمامة حتى كادت العمامة تطير فى الهواء رؤيته للقطة وهى تتوضأ استعدادًا للصلاة . نعم تتوضأ، تعتدل فى وضع الإقعاء ، تمد يدها اليمنى إلى فمها فيخرج لسانها يلحس راحة اليد ظهرًا لبطن تاركا عليها قدرا من اللعاب تمسح به وجهها لعدة مرات ، تتبعها

باليد اليسرى فتغسل الجانب الأيسر من الوجه ، ثم الرأس ، فالرقبة ، ثم تميل برأسها متكورة الظهر ، وبلسانها تغسل المنطقة السفلية من بطنها غسلا جيدا مثلما يفعل المصلى عند الاستنجاء ، ثم تعيد كل ذلك من جديد حوالى سبع مرات . فما إن يشرع المصلون فى دخول الجامع حتى تدخل فى أثرهم بخطوات رزينة رصينة ورعة ، تنضم إلى أحد الصفوف الخلفية إذا كان الجامع مزدحما يوم جمعة ، فإذا كان عدد المصلين قليلا فإنها تتخير رقعة محاذية للرقعة التى يضع فيها الإمام رأسه عند السجود ، تميل بجذعها حين يميل ، تضع رأسها على الأرض حين يسجد ، تقعى على قرافيصها فى هدوء وعظمة وصوت هريرها يقرأ التحيات ، وحينما يلوى الإمام رأسه نحوها لينهى الصلاة بقوله : السلام عليكم ، تلوى هى الأخرى رأسها ناظرة حيث نظر ثم تلويها مرة أخرى فى الاتجاه الثانى . فإذا ما انتهت الصلاة خرجت هى مع جموع المصلين واختفت فى مكان لا يعرفه أحد ، لا تظهر إلا قبل موعد الصلاة بدقائق معدودة حيث يفاجأ بها

المصلون ممددة على صدغ الباب . فجرا وصبحا وظهرا وعصرا ومغربا وعشاءً ، لا يفوتها فرض واحد .

الذهول الذى طرأ على الحاج أحمد سعيد بعد متابعته لهذه القطة المتصوفة لفت أنظار جميع الناس فى حى قايتباى مما أعطى للقطة شهرة لا يحلم بها طامع فى النجومية . البعض سخر فى البداية ، البعض الثانى اعتبر الأمر عاديا جدا ، قياسا على حقيقة أن جميع من فى الأرض والسماوات من كائنات يسبح بحمده تعالى . أما أن يشترك حيوان بعينه مع الآدميين فى إقامة الصلاة على الطريقة الآدمية فلا تفسير له فى نظر البعض الثالث إلا أن تكون روح أحد الناس الطيبين قد تلبست هذه القطة عند مغادرتها لجسد صاحبها فى صعودها إلى الملأ الأعلى ، ولابد من أن ذلك الرجل الطيب كان من أولياء الله الصالحين حتى أن روحه استطاعت أن تضع فى القطة روحًا إنسانية صرفة لدرجة أن هريرها يكاد يكون كلاما مفهوما لشدة تطابق الإيقاعات الصوتية بينه وبين حديث الدعاء

والابتهال وقراءة القرآن الكريم . أما الحاج أحمد سعيد فقد وقر فى ذهنه أن الله اختصه بشرف اكتشاف هذه المعجزة برؤيته لواحدة من الآيات البينات التى حثنا سبحانه وتعالى على ملاحظتها كدليل واقعى ملموس على الآيات البيانية الواردة فى القرآن .

حق للحاج أحمد سعيد أن يفرح بهذا الكشف الإلهى وأن يزهو بشدة وعمق إيمانه وصفاء روحه ، مما جعله يواصل الليل بالنهار فى تهجد وسجود وركوع وابتهالات ساحبا خلفه رهطا من المصلين المقتنعين بأهمية كشفه وضرورة النظر إليه بكثير من الاعتبار . أصبحوا يشاركون الحاج أحمد الاهتمام بهذه القطة ومتابعة أخبارها ووصف حركاتها وسلوكها ، لدرجة أنهم جميعا طرأت على وجوههم ملامح قططية واضحة ، قصرت رقابهم حتى اندفنت بين أكتافهم عند الجلوس لقراءة التحيات ، صاروا يبربشون بعيونهم ويلعقون شواربهم بل صارت قراءتهم أقرب إلى الهرير . منهم الجزار والسماك والخضرى والفوال ، يجيئون للقطة بأجود الأطعمة

من بقايا محلاتهم ، يضعونه أمامها على صدغ الباب ، فإذا هى تنظر إليه وإليهم فى كثير من الاستعلاء والأنفة كأنها تؤنبهم على فعلتهم وتهزأ بتفكيرهم المنحصر فى هم البطون . تطلق بعض نونوات رقيقة أسيانة كأنها تقول لهم ارفعوا هذه القمامة من أمامى . يؤكد فهمهم لهذه النونوة أنها تتمهل قليلا ثم يعتريها شىء من الغضب فتروح تنكش المأكولات بقدميها إلى أن تزيحها تماما وتلقى بها فى الأرض . . إنها إذن روح متصوف زاهد .

حتى فى موتها كانت صاحبة كرامات كالأولياء الصالحين سواء بسواء . ماتت ميتة كريمة . ظهر عليها الإعياء الشديد ذات يوم ، آب الإعياء إلى هزال حتى إنها لم تعد قادرة على التجول ، بل إنها فقدت القدرة على الوضوء . لم تعد تدخل الجامع مع المصلين ، رقدت فى مكانها الأثير على صدغ الباب ، ظلت راقدة إلى أن سكت تنفسها تماما واستراحت أعضاؤها وتخشبت . ضاعت محاولات الحاج هباء طوال أيام مرضها ، حملها بين ذراعيه

ولف بها على الأطباء والصيادلة فحصنوها بالأمصال والمقويات ولكن بلا جدوى . وحين تأكد الحاج أحمد من موتها بكاها بحرقة كما لم يبك من قبل . كان خارجا من صلاة العصر بين رهط من أتباع القطة ، فوقفوا حول جثمانها يتداولون . اقترح بعضهم أن يدفنوها فى مكان بعيد ، واقترح آخرون دفنها فى المقابر وما أكثرها من حولهم ، فعقب آخرون بضرورة تغسيلها وتكفنيها كأى إنسان . هنا طرأت الفكرة على دماغ الحاج أحمد ، فهتف بها فى جلال : سأبنى لها ضريحا خاصا بها! هل يشاركنى أحدكم تكاليف البناء؟ أومأ البعض برءوسهم موافقين ، ابتسم البعض الآخر ولاذ بالصمت . ازورّ عنهم الحاج أحمد فى اشمئناط وغضب وحمل القطة بين ذراعيه واتجه بها إلى بيته . أمر ابنه الكبير بالتوجه إلى مقبرة العائلة فى سفح طريق صلاح سالم وأن ينتقى مساحة مربعة من حوشهم الواسع ليفحت فيه فسقية للقطة . بمساعدة الطربى نفذ الولد طلب أبيه . فى الوقت نفسه أمر الحاج أحمد بتسخين المياه

وتفصيل كفن من الحرير الأخضر ضحت فيه زوجته بإيشارب ثمين وارد من الحجاز ، قالت عن طيب خاطر مش خسارة فيها . فى طريقه إلى المقبرة استدعى أحد البنائين . تعمد أن يمر من أمام جامع قايتباى والمقهى ، فانضم إليه رهط كبير من الناس ، مضى الموكب مهيبا حزينا إلى المقبرة ، كلما مر فى الطريق بأحد سأل هذا فى فزع : مين اللى مات يا جماعة ؟ فيتلقى أكثر من رد : «القطة الشيخة تعيش أنت » ، فيهتف فى ورع : «إنا لله وإنا إليه راجعون !والله لقد حزنت!» . وهكذا كان موكب الجنازة يكبر ويستطيل فى الطريق إلى الحوش .

إن هى إلا أيام قليلة حتى قام الضريح حول الفسقية ، ضريح محندق ذو قبة لها سهم يعلوه هلال ، تم تغفيقه ودهنه بالزيت ، أقيم له باب حديدى بمفتاح ، فرشت أرضه بقطع من الأكلمة القديمة لأن الحاج أحمد قرر زيارة الضريح فى كل المناسبات والأيام المفترجة ، بل لقد راوده خاطر سرعان ما نقله على هيئة وصية واجبة التنفيذ : أن

يدفنوه بجوار القطة عند موته تحت قبة هذا الضريح ، لكنه ما لبث حتى سحب وصيته بقوة مشددا على عياله بعدم تنفيذها حيث إنه استخسر الضريح فى نفسه واستعاذ بالله من شر الغرور وسأل نفسه مؤنبا : تبنى ضريحا لنفسك يا بوحميد ؟! والله إنه لعيب !لقد بنيته لواحدة من أولياء الله الصالحات وهى لاشك تستحقه ولو لم تكن تستحقه عن جدارة لما ألهمك الله ببنائه .

اعتاد زيارة الضريح يوم الخميس من كل أسبوع حيث يستدعى بعض المشايخ الجائلين ليقرأ القرآن على روحها ، وفى كل زيارة يشكر القطة لأنها عودته على زيارة موتاه ووصل ما انقطع بينه وبينهم . ولكن حدث أن اضطر للسفر إلى الصعيد والمكوث هناك شهرين . فلما عاد توجه من فوره إلى الضريح بصحبة زوجه المحملة بأقراص وفطائر لتوزيعها على أبناء السبيل . اقترب من الضريح وضع يده على الباب ، نظر من الفراغات فى أعلى الباب ، استعاذ بالله وتفل فى عبه من شدة الخضة ، نادى زوجه بفزع : شوفى يا أم سعيد وتأملى . جاءت ونظرت بقلب واجف ،

رأت عشرات من القطط الجميلة اللطيفة كالملائكة بعيون كدوائر من البللور تعكس جميع الألوان ، مقعية ومتمددة حول شاهد القبر فى تطامن وهدوء . قالت أم سعيد : ما هذا يا ربى ؟ كيف دخلت كل هذه القطط هنا مع أن الخروم لا تتسع لفأر صغير ؟! قال الحاج أحمد : لا يهمنا كيف دخلوا فالقطط لا تعدم وسيلة للدخول إلى أى مكان ! ما يدور بعقلى الآن هو أن قطتنا الطيبة كانت شيخة طريقة صوفية وهؤلاء هم أتباعها ودراويشها الذين أخذوا العهد على يديها قد اهتدوا أخيرا إلى ضريحها فجاءوا لإحياء ذكراها . ثم انخرط فى بكاء حراق اهتز منه جسده . وفيما كانت زوجه تسحبه عائدة إلى مدفن العائلة كان دماغه مسكونا بفكرة جديدة طارئة : كيف يمكنه التدبير لإقامة مولد سنوى لهذا القطب الكبير .

السحب السوداء

أدركنى المطر وأنا واقف فى محطة الأتوبيس فى ميدان التحرير تحت مظلة مبنية بالأسمنت المسلح ، فى مواجهتى مبنى الجامعة العربية وفندق هيلتون النيل ، وعلى يمينى مبنى المتحف المصرى الذى لم أدخله مرة واحدة فى حياتى . كانت السحب قد طرحت على المدينة خيمة من الظلام فبدا كأننا فى منتصف الليل مع أن الساعة فى يدى تشير إلى الخامسة بعد الظهر ، وبهذا أكون قد وقفت هاهنا منذ ساعة ونصف الساعة فى انتظار السيارة التى سأركبها إلى مسكنى فى منطقة ريفية متاخمة لحى المعادى . السحب السوداء كانت ثقيلة جدا على صدرى فأعادتنى طفلا حزينا فى فصل المدرسة الأولية غير

منتبه لشرح المعلم ؛ إذ يسافر دماغى وسط المطر وهدير الرعد إلى محطة السكة الحديد التى سينزل فيها أبى من القطار ليمشى إلى بلدتنا ثمانية كيلو مترات وهو كهل فى السبعين من عمره . يقطع هذه الرحلة الصعبة يوميًا إلى مدينة المركز لتأدية عمله الذى ابتدعه لنفسه ؛ حيث ينوب عن أهل بلدتنا فى توفيق أوضاعهم وقضاياهم لدى الجهات الحكومية المتعددة لقاء أجر زهيد . هذه الرحلة اليومية المضنية هى من أشد مصادر القلق والعذاب فى حياتى ، فكأننى أخوض بنفسى فى الوحل وأتلقى صبيب المطر فوق رأسى شتاءً وصفائح اللهب والعرق المغلى صيفا ، حتى بت أكره المطر والحر إلى حد الشعور بالقهر تجاههما .

سرعان ما تبينت أن الحزن القابض على صدرى يعصر قلبى بيد من حديد إنما هو بسبب من القلق على زوجى وأولادى . فنحن نسكن فى شقة معزولة فى الطابق الأرضى ، جدرانها مبنية على طوبة واحدة ، سقفها هزيل ، بلا عمدان ، أساسها قطع من الحجارة

مدكوكة فى الأرض . ولأن الصرف الصحى لم يدخل المنطقة بعد فإن المالك أعد تحتها بئرا تتجمع فيها مياه الصرف ويتم نزحها كل عدة أشهر . ولما تزوجت ابنته بنت لنفسها غرفة بمنافعها فوق شقتى ، وأصبحت تلقى بمياه غسيلها ومسحها فوق سطحنا . تشوه سقف شقتى من الداخل ؛ إذ تسربت المياه وسكنت بين المونة وحديد التسليح فتساقطت المونة فى أكثر من تسعين فى المائة من السقف . عرضت عليها أن نتعاون فى صب السقف من جديد لكنها رفضت ؛ إن هدفها بالطبع واضح : مضايقتنا حتى نرحل ونترك لها الشقة ، وهذا هو المستحيل بعينه . صرت أعيش فى رعب مقيم ؛ أفتح عينى كل صباح على منظر السقف فوق رأسى ، يهولنى منظر أسياخ الحديد ظاهرة كالهيكل العظمى لجثث متآكلة اللحم ، وأغمض عينى كل مساء على خوف من سقوط كتلة من المونة فوق رأس العيال . تنازلت للعيال وأمهم عن حجرتى باعتبارها بعيدة بعض الشىء عن منطقة الرشح . كل من زارنى من

الزملاء والأصدقاء أخذه الروع وتساءل : كيف تقبل الحياة فى هذه الشقة الآيلة للسقوط ؟ ولكن لم يجبنى أحدهم عن سؤالى : وكيف لموظف بسيط مثلى أن يجد شقة أخرى ؟! . .

دوى الرعد يزلزل ميدان التحرير . لابد من أن الكون قد أصابه الجنون . سقف السماء نفسها سيقع بين لحظة وأخرى . سيول المياه المتدفقة من السماء توحى بأن البحار كلها قد انقلبت رأسا على عقب وهاهى ذى تدلق كل ما فى جوفها . صار من المؤكد أن السيارة التى أنتظرها لن تجىء مطلقا . يبدو أن جميع خطوط هيئة النقل العام قد توقفت تماما عن العمل . فجأة ظهرت سيارة ميكروباص عند المتحف المصرى ، صبيها ينادى : المعادى المعادى ، وثمة من يجرون نحوها لا أدرى أين كانوا ينتظرون . جريت نحوها تحت السيل المتدفق والوحل يتناثر فوق وجهى ، يتسلل إلى جوربى داخل الحذاء . كنت أعرف أن هذه السيارة ستتركنى فى محطة المعادى وأننى سأمشى خمسة كيلو مترات على الأقل لكى

أصل إلى مسكنى ، مع ذلك رضيت . ثمة يقين يناوشنى مؤكدا لى أن البيت لابد أن يكون قد انهار منذ ساعات طويلة مضت ، فتدب فى أوصالى طاقة جبارة . الظلام من حولى كثيف ، والبرق خطيف ، والرعد مخيف ، والسيل مندفع فى الهبوط بقوة ، والريح تقاومنى ترد خطواتى إلى الخلف وأنا مع ذلك أناطحها وأبذل جهودا مضنية لأنتزع قدمى من عجينة الوحل فى كل خطوة أخطوها .

الحمد لله ، لا يزال البيت قائما فى مكانه . فتحت الباب ودخلت . الشقة ساكنة سكون الموت . ضغطت بأصابعى على زر النور فى مكانه المحاذى للباب ، لمع ضوء خاطف ثم طرقع المصباح وفصلت الكهرباء ، حدثت قفلة . أعلم أن الأسلاك عارية ، أى اقتراب منها أو من اللوحة يهدد بالخطر . أغلقت الباب بهدوء . أشعلت عودا من الكبريت مضيت على ضوئه إلى المطبخ . كانت بحيرات المياه فوق البلاط تعكس ظلى ممسكا بعود الكبريت . بحثت فى كراكيب المطبخ عن المصباح الزجاجى وأنا أدعو الله

من أعماقى أن تكون به بقية من الجاز . كانت زوجتى قد ركنته فى ركن فوق الترابيزة المكتظة بالحلل والأكواب . أشعلت عودا آخر ، رفعت المصباح بحذر شديد . وبحذر أشد رفعت زجاجته وظللت ممسكا بها حتى أشعلت الشريط ثم ركبتها متجاهلا الهباب الذى ارتفع من الشريط ودهن عنق الزجاجة بلون الظلام . لا أعرف إن كانت هذه البرك الكثيرة من المياه تكونت مما لا يزال يسيل من ثيابى أم من السقف الذى لا ينى يبصق دفقات متتالية من جميع الجهات . رفعت رأسى تلقائيا ، رأيت السقف كثوب أسود عتيق مشغول بالترتر ؛ فنقط المياه متجاورة فى دوائر وصفوف ومثلثات كالعناقيد ، تتجمع تتضخم تتحد تتخلى عن أماكنها لتسقط صانعة فوق الأرض إيقاعات متوترة كالنذير المشئوم . فما إن تغادر النقاط أماكنها حتى تحل محلها نقاط جديدة تلفظها المنابع التى بدت بلا حصر فى سقف الردهة . تناولت من فوق البوفيه كتابا من كتب العيال طرحته فوق المصباح ليتلقى الخيوط المتدافعة حتى لا تسقط فوق الزجاجة

الساخنة فتكسرها . شعرت بأننى أرتدى فوق جسدى أطنانا من الحمول الثقيلة . شعرت بالثقل الشديد فى قدمى المتعبتين . زحفت إلى حجرتى ، ركنت المصباح فى ركن جاف ، تخلصت من كل ملابسى ، رميت بها فى السلة كيفما اتفق . ارتديت الجلباب والفانلة الصوف أم رقبة وجوربًا ؛ فشعرت بالاسترخاء يتمشى فى عروقى كأن جميع أعضاء جسمى قد تفككت . باندفاعة تلقائية رميت بجسدى على السرير منطرحا فوق ظهرى محاولا تنظيم أنفاسى المضطربة . لسعتنى البرودة فى ساقى ؛ استشعرت البلل فى اللحاف والمرتبة . انتفضت قاعدا أتحسس هذا الجزء من الفراش ، كان البلل متفشيا بعمق . مع ذلك استوعبت الصدمة قليلا لأفكر فى علاج سريع . أنبأنى الرعد المتلاطم وصوت زفيف الريح وانهمار المطر أن نصف العمى خير من العمى كله . تذكرت العيال . تجمعت فى قفزة واحدة عن السرير . سحبت المصباح ، مشيت به فى حذر ويدى اليسرى تطرح الكتاب فوقه . خرجت إلى الردهة . غاصت

قدمى فى برك المياه المتجمعة فغرق الجورب . فتحت حجرة العيال . الحجرة ساكنة تماما ، ليس فيها ثمة من صوت لأى تنفس ، لا صوت إلا صوت وقع المياه على المياه . رفعت المصباح لأعلى ، طالعت منظر السرير ، كان بكامل فرشه ، اللحاف مفرود ، تظهر تحته أطراف البطانية ، ومن فوق اللحاف طشت الغسيل قد امتلأ لقرب حافته بالمياه التى لا تنى تتساقط فيه بغزارة من السقف مكشوف الأضلاع ، وقد وضح أن المياه تسللت إلى مواسير الكهرباء الظاهرة تحت بقايا كتل المونة التى انفصلت أطرافها عن أعلى الحوائط وتهيأت للسقوط . .

سقط قلبى ، صار يتدحرج فى برك المياه ، يغيب لحظات فى الوحل ثم يطفو ليختفى . يا ربى . . أين ذهب العيال وأمهم ؟! أتكون المسكينة قد أخذتهم وسافرت إلى بلدتنا ؟ أشك تماما ؛ ليس معها نقود تكفى لنفقات السفر ، وإذا كنت أنا قد عانيت كل هذا العناء لمدة نصف يوم لكى أجىء من ميدان التحرير إلى المعادى فكيف لزوجة بأربعة عيال أن تسافر إلى

قرية فى شمال الدلتا بعيدة عن كل المواصلات فى يوم كهذا إلا أن تكون مجنونة جنونا مؤكدا ، وإن كانت قد جُنَّت بالفعل واقترضت أجرة السفر فإنها تكون الآن فى قمة العذاب فى فك خطر محقق ، خاصة أن بلدتنا نفسها تتحول فى مثل هذا اليوم إلى معجنة بمعنى الكلمة ، وتنقطع جميع الطرق الموصلة إليها . أم تراها قد لاذت ببيت من بيوت الجيران ؟ وهل يمكن أن تكون إحدى صديقاتها قد أشفقت على العيال فدعتها للمبيت عندها ؟ . . أشك أيضا ، فزوجتى ليست تستجيب لمثل هذه الدعوات حتى ولو رأت الموت بعينيها . .

خرجت إلى الردهة مضطربا لاهث الأنفاس ، انحنيت على كل ركن أفتش عن ورقة تكون قد كتبتها لى ، لم أجد شيئا . أعدت المصباح إلى الركن الجاف داخل حجرتى ، خرجت إلى الردهة ، فتحت باب الشقة ، داهمتنى ستارة مشغولة من خيوط المياه كستائر الخرج على أبواب الحلاقين . اخترقتها إلى باب الشقة المواجهة المبنية حديثا ، وقد أشرق الأمل

فى رأسى إذ أتذكر أن الست أم مجدى ساكنة هذه الشقة تقيم فيها مع ابنتها العانس وحدهما منذ رحيل زوجها قبل عامين ، رجحت أن تكون هى التى دعت زوجتى للمبيت عندها على الأقل لحين عودتى . طرقت الباب بيد وجلة مرتعشة . بعد عدة طرقات جاءنى صوت أم مجدى من أغوار بعيدة يصيح فى عصبية وسخط بين طبقات خشنة من صدأ النوم : «مين اللى بيخبط ؟!» . خرج صوتى مهيضا مرتاعًا: «أنا فلان يا أم مجدى» . قالت بوضوح وأريحية : «خير يا فلان ؟» . قلت : «زوجتى وعيالى عندكم ؟».

قالت بحسم : «لا» . سألتها بسرعة فى ضراعة : « ألم تقل لك أين ذهبت ؟» . قالت : «بصراحة لم أرها اليوم ! أنا لم أفتح بابى طول النهار» . عدت إلى شقتى أقاوم الرغبة فى الصراخ ، كنت أشعر بصرخاتى الدامعة تنضغط فى حلقى متكورة كأننى مرغم على ابتلاع بيضات حديدية . سمعت خطوات تقترب من عتبة الباب ، وهمهمة ميزت فيها صوت ابنة المالك وزوجها فعرفت أنه مر

عليها فى بيت أمها المجاور فأتى بها ليناما فى غرفتهما المنزوية فى ركن قصى فوق سطح شقتى . بقيت واقفا فى فتحة الباب لحقت بها وهى تقفز إلى السلم ، سألتها إن كانت قد رأت زوجتى اليوم ؟ فقالت ؟ لا ، ثم اختفت . أغلقت بابى ، خلعت الجورب والجلباب والفانلة ؛ بحثت فى الدولاب عن أية خرق أرتديها ، لكن زجاجة المصباح فرقعت فجأة وانطفأت شعلة الشريط الذى تشبع بالمياه ؛ فلم يعد قابلا للاشتعال . تحسست فى الظلام موضع الجلابية والفانلة ثم ارتديتهما كيفما اتفق ، وانطرحت على السرير منخرطًا فى بكاء حارق . كان التعب قد هدنى وشل أطرافى ، شملتنى حالة من اليأس داست فوق جسدى بقوة جبارة ، حتى خيل لى أننى قد غصت تحت سابع أرض أقاوم لاسترداد أنفاسى لكننى عاجز عن تحريك أية عضلةِ فى جسدى . كنت أشعر أننى أطفو قليلا فأسارع بالتقاط الأنفاس ثم لا ألبث حتى أرانى غصت تحت الأرض من جديد فى غيبوبة . وذات طفوة طويلة النفس فوجئت بأننى قد فتحت

عينى فإذا بى لا أزال منطرحا على ظهرى فى بطانة من البلل ، وقد رق الظلام قليلا ، وصوت المطر لا يزال يوش . وفيما أنا بين النوم واليقظة تناهى إلى مسمعى صوت أصغر عيالى يشرع فى البكاء لكن يبدو أنه استسخف نفسه فسكت ، إلا أن صوت أمه جاءنى بكل وضوح يسأل الولد عما يريد ويصيح فيه محذرا إياه من أية حركة . أنصت إلى الصوت جيدا ، ثم أغمضت عينى فى تطامن مع الصورة التى صارت تتضح فى ذهنى وتُسرِّب إلى شفتى مشروع ابتسامة لشدة غرابة الصورة وطرافتها ، صرت أسائل نفسى متعجبا : كيف استطاعت هذه الزوجة التعيسة أن ترص عيالها فوق المرتبة على السرير ثم تفرد فوقهم البطانية فاللحاف فتخفيهم تماما ، ثم تخفى نفسها بجوارهم ثم تضع طشت الغسيل فوق اللحاف ليتلقى قطرات المطر ؟! لم أعرف بالضبط كيف فعلت ذلك ، كل ما أدريه أننى ظللت بقية الليل متيبسا أتجنب الحركة شاعرا بالطشت الملآن بالماء مثبتا فوق صدرى ورأسى وسائر جسدى ، وكنت أقاوم لضبط أنفاسى تحت ثقله الشديد .

سَتْر المفضوح !

نجحت مؤامرتى مغامرتى بعون من الله وتوفيقه حيث تم الأمر فى سرية تامة . طوال فترة التدابير لأكثر من عشرة أيام كنت أشعر من حين لآخر بشىء من الخسة فى سلوكى هذا ، إلا أننى كنت مصرًا على المغامرة كمنفذ وحيد للتنفيس والتمرد ، وهكذا استطعت إخماد الخبر فى منبعه فلم يصل إلى علم زوجى وعيالى أن المؤسسة الحكومية التى أعمل بها موظفا فنيا منذ تخرجى فى كلية الفنون التطبيقية سترد إلى جميع العاملين فيها مبالغ لا بأس بها ، قيل إنها فروق الضرائب التى كانت تخصم من مرتباتنا بطريقة عشوائية ثم اتضح فى نهاية العام المالى على ضوء اللوائح أنهم كانوا غير محقين فى خصمها .

من جانبى تلقيت الخبر ببرود متعمَّد حتى

لا أصاب بصدمة إذا ظهر كذبه . فلما أثبتت تحرياتى الداخلية أن الإدارة أعدت الكشوفات بالفعل وأن الصراف فى انتظار توقيع الشيك ليبدأ الصرف ، قررت أن أتآمر على هذا المبلغ الخاص بى فأستأثر به وحدى لعلنى أستعيد به لحظات وأشياء كانت حميمة وحرمت منها منذ أن تزوجت قبل خمسة عشر عاما وأصبحت أحصل على مصروف يومى كأننى مازلت تلميذا ، مع فارق جوهرى هو أن المصروف أيام التلمذة كان يكفينى بالراحة أما وأنا موظف بمرتب لا بأس به فإن مصروفى اليومى يسجننى فى إطارِ سلوكىَ لا أحيد عنه مطلقا . ولكى أضمن عدم تسريب الخبر إلى بيتى ركزت على الصراف وقسم المراجعة . ذلك أن زوجى بما تتميز به من نفس مفتوحة صافية وروح ودودة كريمة أصبحت تعرف أصدقائى المقربين فى القسم الفنى ، وأصبح لها الدلال على الصراف وقسم المراجعة فى الإدارة ، لا حرج فى أن ترفع سماعة التليفون وتدردش مع الصراف تسأل عن المدام وصحة العيال وبالمرة تعرف

إذا ماكانت المرتبات قد بدئ صرفها أو متى ستصرف ؟ فإن حلف لها بطربة أبيه أن التأخير من قسم المراجعة ، الذى لم يرسل الشيك بعد وأنه مستعد لإرسال المرتب لها بمجرد حصوله على الشيك حتى قبل أن يصرفه ؛ فعندئذ لا تتورع عن طلب الأستاذة عفاف رئيس قسم المراجعة فما إن تسمع صوت الأخيرة حتى تدخل فيها شمالا بغير مقدمات وهى واثقة بأن السيدة عفاف ستعرفها من هذه الدخلة الاحتجاجية الساخنة ، وستهتف مهللة مرحبة طالبة العفو والسماح لمدة أربع وعشرين ساعة على الأكثر .

زوجى إذن ملمة بأخبار الفلوس بكل دقة وإحاطة ، تعرف أن الحوافز تصرف شهرا بعد شهر - قبل أن أعرف أننى سأحصل هذا الشهر على نسبة خمس وسبعين فى المائة وأننى يجب أن أفسر لها كيف تراخيت فى الجد والاجتهاد حتى تسببت فى نقص النسبة خمسا فى المائة عن الشهر الفائت . تعرف كذلك أن الساعات التى أمكثها فى المؤسسة فوق ساعات العمل الرسمية

حصيلتها فى الشهر كذا ، وأنه يصرف معها بدل إعاشة خمسة جنيهات فى اليوم ستتركها لى أفنطز بها على نفسى طالما أنه قد كُتب عليها أن «تقطع من جنتها» لتفى بمصروفات المدارس والدروس الخصوصية ناهيك عن ولعة الأسعار ، حتى إن الطبخة الواحدة أصبحت تتكلف وحدها مرتب وكيل وزارة فى عهود قريبة سابقة ، حتى فواتير الكهرباء والماء والتليفون انضربت بقرد وعفريت بات يطلع لنا فى الفراش يحرمنا النوم والمتعة وكل شىء ، أم تراك - تقول - تنسى أننا - يادوبك - نجاهد لنبقى أحياء فحسب ؟ منذ متى لم أشتر لنفسى فستانا جديدا أو ملابس داخلية ؟ من العيد قبل الفائت فهل هذا يرضى ربنا يا مسلمين ؟! . . خلاص يا ستى . . كفى . . أنا حفظت هذه الأسطوانة بل هى منقوشة فى صدرى . . تذكرى أنت أيضا أننى قد حرمت نفسى من كل شىء ، لا أرتدى سوى أردأ القمصان والبراطيش فمتى تكفين عن توبيخى مع أنك لا ترين أى تقصير من جانبى ، بل إن جميع مايصيبنى من فلوس تقبضينها أنت بنفسك من الصراف يدا بيد ولا أعرف عنها شيئا .

الحق لله أكون متأذيًا من ردودى عليها إذ إننى أدرك تماما إلى أى حد هى صادقة معذورة فى تذمرها الدائم . أعترف بأن المرتب والحوافز والإضافى وكل ذلك - لولا حكمتها وحسن تدبيرها وانصراف نظرها عن كل مظهر كذاب - لا يستطيع الوفاء بمتطلبات أسرة مكونة من ستة أفراد وشغالة ريفية صغيرة تقاسمنا اللقمة والفراش والدواء . أعترف كذلك بأنه لمن الخسة أن أخفى عنها أى مدد جديد رغم علمى بما هى فيه من شقاء وعوز ، ولكننى كنت مشحونا بالرغبة المحمومة فى استرداد شخصيتى التى أشعر أنها تكاد تندثر تحت جبال من القهر والضيق وانحصار الأفق ، أصبحت تواقا إلى أن أضع يدى فى جيبى فأجد فيه فلوسا تخصنى تتيح لى أن أجلس فى مكان عام واضعا ساقا على ساق وأطلب مشروبا منعشا للمزاج ، أن أحود على الكبابجى وأمارس لذة الشره فى أكل السلاطة الخضراء قبل مجىء الكباب ، أن أشترى قميصا محترما ، حذاءً عليه القيمة ، أن أمارس سهرة مع الشلة من الأصدقاء الذين يشوفون مزاجهم كل ليلة

وكأنهم يغترفون الفلوس من بئر لا تجف ، عقدتى أنهم عزمونى أكثر من مرة فأصبحت أحلم - نعم أحلم - بأن أعزمهم ولو لمرة واحدة .

يوم ذهبت إلى الصراف لأقبض فروق الضرائب لذّ لى أن أتأخر طويلا حتى لا أقف فى الطابور ، هكذا قلت لمن دعانى لمرافقته إلى الخزنة من زملاء القسم ، ولكننى فطنت إلى أن ملابسات السرية التى أقمتها حول خبر الفلوس جعلتنى أرغب فى ألا يرانى أحد لحظة قبضها ، مع أننى لست مدينا لأحد على الإطلاق فى المؤسسة وأضع شايى وسكرى ووابور السبرتو فى خزنة مكتبى حتى لا يغرينى بوفيه المؤسسة بالسحب منه . الطريف أننى حينما لحقت بالصراف فى آخر لحظة قبل انصرافه أبدى لى تعجبه من أننا جميعا جئنا إليه منفردين نتلصص ونتلهوج كأننا نختلس ، ثم قال إن تسعين فى المائة من الموظفين كبارا وصغارا همسوا فى أذنه برجاء حار بألا يخبر أحدًا عن سيرة هذه الفلوس فلما ضاق بتكرار الهمسة نفسها صاح ضجرا: «حد مين يعنى ؟!» ، فتلقى ردا

متشابها بها : «أى حد ، أى حد والسلام» ، ونطقت نظرته الموروبة مع لسانه عبارة :هم يقصدون زوجاتهم بالطبع كأنهم يفترضون أننى على علاقة بجميع بيوت السادة الموظفين وهذا غير صحيح بتاتا .

المبلغ الذى قبضته كان دافئا جدا ، كان فوق الأربعمائة جنيه ببضع برايز وضعتها - بتوجيه من الصراف - فى صندوق للصرف على المصلى التى أقامتها اللجنة النقابية بعد نجاحها فى الاستيلاء على نصف مساحة الجاراچ الخاص بالمؤسسة ، إذ لا بأس- فى نظرهم - من أن تبيت السيارات فى العراء لكى يؤدى الموظفون فرض الصلاة جماعة فى مواقيتها فى أثناء العمل .

رغم أن مرتبى فى السفرات الأخيرة ببدلاته وتعديلاته وغلاءاته وترقياته قد تجاوز الألف وخمسمائة جنيه ، ورغم أننى سبق أن قبضت من المؤسسة سلفيات وصلت إلى عشرة آلاف جنيه تم خصمها بعون الله من المرتب على أقساط انتهت منذ

شهور ، فإننى لم أشعر بدفء الفلوس وحلاوة ملمسها إلا لحظة قبضى لهذه الأربعمائة جنيه .

أغلقت باب الحجرة ، فتحت درج مكتبى ، انكفأت بلذة ورعشة حميمة ، رحت أجمع وأطرح وأضرب وأقسم على مشاريع شاهقة كانت كثيرا ما تراودنى تحت وطأة الفلس . إلا أننى ما لبثت حتى ووجهت بمشكلة بدت رهيبة مقلقة : كيف أخبئ هذه الفلوس فى مأمن ؟ كيف أنجو بها ؟ .. صحيح أن زوجى ليس من عادتها تفتيش جيوبى إلا أن هذه الحفنة التخينة من العشرات ليس من السهل إخفاؤها فى أى جيب وإلا فإنها تكون كالبذرة الحرام فى بطن خاطئة مفضوحة بالانتفاخ ، ثم إن محفظتى التى شضّضت وجف جلدها من طول الفلس فتلوّت وتكعبرت من طول حشرها فى الجيب الخلفى للسروال لم تعد تقبل استيعاب أكثر من عشرين ، ثلاثين جنيها . انتشيت برائحة الفلوس وكان لملمسها لذعة فى الأنامل كلذعة الخمر المعتقة فى لسان الشريب ، حقا إن للفلوس زخمًا ورائحة نفاذة ، أحيانا كعطر الفل والياسمين ،

وكرائحة الشيح والفلفل أحيانا أخرى . ها هى ذى رائحة الشيح والفلفل تطرد من خياشيمى رائحة الفل والياسمين ، ها هو ذا صدرى ينقبض فجأة ، تنهال على ذاكرتى مئات من الليالى الكئيبة عشناها أنا وزوجى وعيالى نضرع إلى الله أن يهبنا ربع هذا المبلغ من أبوابه الواسعة الكثيرة : ليلة مصاريف المدارس ، ليلة الملابس الرسمية المقررة ، ليلة كسوة العيد ، ليلة فاتورة التليفون ، ليلة قسط الثلاجة أو البوتاجاز أو التليفزيون والفيديو والسخان وشفاطات للمطبخ والحمام وحجرة نوم العيال .. ليال لا حصر لها ولا نهاية ، ولربما حلت واحدة منها بعد أيام قليلة . وصحيح أنها دائما تنتهى بطلوع النهار ولكن بطلوع الروح أيضا ، حيث ينهد المرء مكسور القلب والعين من فرط الشعور بالذلة والهوان أمام ديون لا يقوى على تسديدها ومطالب ملحة لا يفى بالتزاماتها ومع ذلك لا يجد لديه وقتا للحزن أو للثورة أو حتى لإعلان الضجر ؛ إذ ما يكاد يرتخى بعد شدة قاسية حتى ينشد حيله برغمه ليواجه ليلة تالية حافلة بألوان من

المنغصات والتهديدات والتوعدات المرعبة . .

شعرت أننى على وشك أن أنهزم فأحرم نفسى من حلم الشبرقة ورفع الهامة والعيش فى بحبوحة ولو لعدة أيام . بدأت يدى تهتز ، بدت الفلوس وكأنها تتواطأ مع زوجى وعيالى ، إذ راحت تنتفض بين يدى متذمرة حانقة نافرة ، تتبعثر ويتخفى بعضها بخبث متسللة تحت الأوراق ، فأجمعها وأحاول عدها من جديد فإذا هى تتلاصق ببعضها وتستعصى على الفصل فأبلل أناملى بريقى وأضغط بإبهامى لأزيح الورقة عن أختها فتنزاح بعد لأى آخذة فى حضنها عدة ورقات . تأكدت على كل حال من أنها لم تنقص . لمحت حافظة الأوراق التى أتأبطها باستمرار ، وضعت المبلغ فى مظروف حكومى أصفر وبللت طرفه بلسانى ولصقته ثم عزّزته بشريط لاصق ثم وضعت المظروف بين طيات خريطة من الخرائط التى يكلفنى القسم الهندسى برسمها ، ثم حشرت الخريطة داخل كراسة من كراسات المقايسات ، ثم وضعت الكراسة بما فيها داخل مظروف فلوسكاب وأغلقته بشريط لاصق ثم

أخفيته بين طيات جريدة الأهرام وحشرتها فى الحافظة ثم تأبطتها وأغلقت درج المكتب بالمفتاح وخرجت من المؤسسة قاصدا قهوة الشيشة كعادتى كل يوم قبل المآب إلى البيت . الشيشة التمباك هى مع الأسف متعتى الوحيدة فى الحياة حيث تتيح لى فرصة تفريغ ما فى النفس من توتر أشاعته ساعات العمل المحموم . مصروفى اليومى منضبط على ثلاثة حجارة مع فنجان قهوة أرطب به حلقى من الدخان طوال حصة الأصيل ، ثم أدفع جنيهين وربع فى الصينية وربع جنيه على سبيل البقشيش للجرسون ثم أنصرف إلى بيتى راضيا مبسوطا . كل عمال المقهى يعرفوننى جيدا ، بينى وبينهم عشرة طويلة أذابت الفوارق والحواجز بيننا لدرجة أنهم باتوا على علم بوضعى المادى ، بل كثيرا ما شاركونى هموم الأزمات المادية الملحة التى تعرضت لها وحادثتهم بشأنها للاستفادة بخبرتهم فى إقامة الجمعيات التعاونية حيث يدفع المشتركون مبالغ متساوية ليقبضها أحدهم حسب ترتيب متفق عليه . حتى عم نور ماسح الأحذية

الوحيد على المقهى يتعاطف من بعيد لبعيد ويمعن فى التقرب منى بذريعة أننى رجل صريح وجدع ولسانى حلو ومادمت هكذا فملعون «أبو» الدنيا كلها إذ إن الكريم لايضام حتى لو تكاتفت عليه الأزمات . و«فاوى» ، الفاكهى السريح الذى يفرش على رصيف المقهى بشوئيات صغيرة منتقاة ذات منظر خلاب يسيل له لعاب المغرمين بالمخصوص المتميز من أصناف الفاكهة : قفص تين درجة أولى ، قفص عنب بناتى مضىء ، سلة مانجو ألفونس زاعقة الرائحة . . إلخ ؛ هذا الفاكهى بنظرته الثاقبة ومفهوميته النافذة عمره ما استدرجنى للشراء مطلقا . أراه كل يوم يخرم على واحد من الزبائن حيث يحييه ويطبع قبلة صاخبة على قبضة يده قبل أن يمدها للمصافحة ، ثم يشفع غمزة اليد بغمزة العين قائلا فى إغراء دافئ :

- «معايا شوية تين مهيطل بينادوا الأكيل النزيه»

وقبل أن يسمع ردا يهرول خارجا ثم يعود بالمشنَّة الخوصية ويروح يعرض حباتها واحدة بعد واحدة فى مهرجان مصحوب بدعوة للتذوق بالمجان بالهناء

والشفاء ، أما الفلوس فمفيش فرق يا سعادة البيه . فى الغالب لن يفلت الزبون من شراء الشروة وسيكون راضيا شاعرا بأنه الكسبان . لم يحدث أن أعارنى هذا الفاكهى أى اعتبار اللهم إلا عبارته الودودة التى يدحرجها من بعيد : مساء الخير يا سعادة البيه . بدورى كنت راضيا بذلك حتى لا يورطنى فى أى حرج ، وإن كنت أضمر مع ذلك ضيقا شديدا من تهميشه لى على هذا النحو .

حين وصلت إلى مقهى الشيشة فى باب اللوق كان الأصيل يصبغ شارع التحرير وميدان الفلكى بلون البن اليمنى الذى ينشر فى الميدان رائحته الحريفة الزاعقة المنبعثة من محل بنان شهير على ناصية الميدان الملىء بعديد من المقاهى . نزلت من الباص ، عبرت الميدان ، حاذيت سور الجامعة الأمريكية فيما أتحسس بأصابعى - شأنى دائما - ما تبقى فى الجيب الصغير من الجنيهات الثلاثة التى أخرج بها من بيتى كل يوم لأطمئن إلى أن نشالاً ممن احتكوا بى فى الباص لم يلهفها .

رصيف المقهى كان مرشوشا بالماء ، ونسمة سبتمبرية لزجة تلفح الوجوه ، والجو يضمر غبارا داكنا مكبوتا وخانقا ، والزبائن على المقهى قد انكسرت رقابهم وانكفأت وجوههم على مباسم الشيش ، وجوههم ممسوحة الملامح كقروش معدنية اضمحل ما كان عليها من نقوش وتواريخ آبت إلى ما يشبه الأورام كبقايا دمامل أو جروح ، وجهاز التلفاز فى رف عال قرب السقف يحدث نفسه بصوت عال عن المذابح فى فلسطين المحتلة ، ولكن الصوت يضيع فى صخب الجرسون وعامل النصبة والنداءات المتواصلة بينهما . كمنت - كعادتى - فى الركن الملاصق للباب وهو موقع يمكننى من متابعة الشارع وشاشة التلفاز معا . بمجرد جلوسى فوجئت بعم نور ماسح الأحذية يقعى تحت قدمى برقعة من الورق المقوى ، منتظرا أن أخلع حذائى وأعطيه له وأضع قدمى على هذه الورقة . جمدتنى الدهشة ، رجحت أنه لم يرنى جيدا فظننى شخصا آخر . ذلك أنه فى العادة لا يقتحمنى هكذا أبدا ، لا يأتى إلا إذا طلبته ،

وفى المرات القليلة التى رغبت فيها فى مسح حذائى - وهى مرات قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة خلال سنين تزيد على أصابع اليدين - كنت أناديه فلا يصدق فيضطر إلى مراجعتى للاستيثاق من أننى ناديته بالفعل ، بل يشير إلى حذائى مكررا التساؤل : تمسح ؟ فأكتفى بخلع الحذاء تأكيدا له أن : نعم . ولم أكن أعتبر ذلك غباءً منه يضايقنى ؛ إذ هو يعرف بالتجربة وبالممارسة وبالذكاء البلدى اللماح أننى لست أفكر فى ورنشة حذائى إلا إذا توفر فوق مصروفى المعتاد خمسون قرشا أعطيها له .. فما باله اليوم يقتحمنى هكذا فور جلوسى دون أن أدعوه ؟! ..

جعلت أصابعه تلامس قدمى تستحثنى على خلع الحذاء ، فصحت فيه مبتسما باحتجاج :

-«فيه إيه ياعم نور ؟ أنا مش عايز أمسح »

ابتسامته الهتماء تتسع ، يسطع عليها بريق عينيه الضيقتين .. فبدا لى أن وراء هذه الابتسامة الموجهة شىء ما ، لعله الاستبشار أو التوقع البهيج . قال :

- « أنا عارف إنك مش عايز بس حاديها فرشة على الناشف» .

-«وليه طيب ؟ ما هى كده كويسه » .

- «مزاجى أنضفها بالمجان . . غلطان أنا ؟!»

لحظتئذ وضع الجرسون الشيشة أمامى وسلمنى المبسم لكى أجرب إيقاع ضرب الماء فيها . تخلصت من عم نور بأن خلعت فردتى الحذاء بقليل من الضجر . لم أكد أستطعم نكهة التمباك المحترق مع أول رشفة من فنجان القهوة حتى عاد عم نور بفردتى الحذاء وقد أصابهما لمعان ذكرنى بأنها كانت بالفعل جرباء كالحة . شكرته بصدق فيما أضع قدمى فى الفردتين وأزيح الورقة ليأخذها ، إلا أنه تركها وسحب كرسيا وجلس بجانبى ملوحا بذراعه وعينه نحو عامل النصبة بإشارة تعنى احتياجه لكوب من الشاى الثقيل . شعرت بانقباض من فرط الغيظ إذ هو يورطنى الآن فى هذا الواحد شاى كأننى استضفته بإرادتى فليتنى إذن تركته يورنش الحذاء بالصبغة والورنيش بدلاً من

تنفيضه بالفرشاة فحسب ؛ لأن ثمن الواحد شاى هنا خمسة وسبعون قرشا أما أجرة المسح فخمسون قرشا فقط . عندئذ اضطربت معدتى وانحرف مزاجى ؛ إذ فطنت إلى أننى لكى أحاسب له على الواحد شاى لابد من أن أكتفى بحجرى شيشة فقط بدلاً من ثلاثة . ثم تذكرت الفلوس فعجبت أشد العجب لأننى كنت قد نسيت تماما أننى أدس فى حافظة أوراقى أربعمائة جنيه مقفولة مبرشمة ومكفنة بمظروف سميك داخل كراسة من داخل خريطة من داخل مظروف آخر كبير طويت عليه جريدة . سرعان ما زال عجبى ؛ ذلك أن الأمر الطبيعى الذى اعتدته يوميا على امتداد عمرى كله ألاَّ يكون فى جيبى أو فى حوزتى مبلغ كهذا حتى وإن كان قليل القيمة فى زماننا الخسيس الذى انعدمت فيه القيمة . . إلا أن شعورًا بالفرح هدهدنى ؛ لاكتشافى إمكانية نسيان هذا المبلغ ، هنا طاب لى أن أنساه من الآن عامدًا متعمدًا ، أنساه كأن لم يكن ؛ فمما لا شك فيه أن ظهوره ذات لحظة مأزومة سيكون أشبه بطاقة من النور انفتحت علينا من السماء .

راح عم نور يشرب الشاى ويحاول اصطياد عينى ، مما وشى بأنه ينوى تصديع رأسى بكلام يؤرقه وهو لاشك يبحث عمن يلقيه عليه ليخلص منه . أخذت أدبر لصرفه بأى شكل ، إلا أن نظراته المعقوفة كالخطاف اشتبكت بعينى ، وتكفلت بسمته الذكية الودودة بتعليقى أمامه كالذبيحة الباردة . لا أذكر كيف بدأ يتحدث ولا كيف دخل فى الموضوع لكننى أفقت من شرودى فجأة على رجل عجوز سيطرد الليلة من الحجرة التى يسكنها فى درب الجماميز ؛ لأن الإيجار قد تراكم سبعة أشهر كان خلالها يزوج ابنته الكبرى وقد دفع دم قلبه ليسترها، ولو كان الأمر عليه وحده لهان فياطالما جرب التشرد والنوم فى العراء سنين عددا ولن يتعب إذا هو عاد للعراء مرة أخرى إنما المصيبة أن زوجه وستة عيال سيتعلقون فى رقبته أينما ذهب ، فماذا يفعل مع العلم بأنه لم يعد يملك شيئا يستحق البيع أو الرهن ؟ . . هذا الرجل باختصار هو عم نور المزنوق فى مبلغ مائة جنيه ليس أكثر !!

كتمت غيظى وحنقى متذرعا بالصبر لتمثيل هدوء

الأعصاب . اختصرت كل ذلك فى ابتسامة شاحبة ، هززت رأسى مرددا فى لطف مصطنع :

- «أنا داخلى إيه يا عم نور ؟! هوانا ناقص وجع قلب ؟»

لم يفرط فى بسمته بل أنعشها لتتسع لمزيد من الود الذى يفترضه . بعشم مبالغ فيه وأخوية ماسخة شوح قائلا :

-«هو أنا باقول لك ادفعهم لى كلهم ؟ أنا قصدى يعنى لو تقدر تساهم بحاجة أهى نواية تسند الزير ! والجودة بالموجود !»

أفرغت كل حنقى فى سحب أنفاس متتالية من الشيشة ثم رفعت الكسوة النحاسية عن النار وجعلت أضغط بالماشة فوقها وأزيح من تحتها رماد التبغ المحترق ، كأننى أزيح رمادا آخر قد تراكم فوق صدرى . شربت آخر جرعة فى فنجان القهوة وقد راودتنى رغبة فى الانصراف إلى غير رجعة ، إلا أننى فوجئت بالجرسون فى لمح بالبصر قد رفع الحجر ووضع الحجر الثالث والأخير ؛ فاستدعيت كل

مظاهر المودة وملت نحو عم نور هامسا:

- «يا عم نور إنت أدرى الناس بإنى راجل على باب الله زيك بالضبط يعنى بادبر مصاريفى الشخصية بالعافية .. وانت مالكش عندى حاجة عشان اقول لك الكلام ده لكن انت مش غريب ! وكمان راجل بتفهم !»

-«معناته إيه الكلام ده يا أستاذ ؟»

-« معناته إنى آسف .. مش حاقدر أساعدك بأى مساعدة ..لأنى .. ممعييش فلوس»

هكذا ألقمته حجرا ليفضها سيرة ويمشى ، لكنه حملق فى وجهى منذهلا فاكتشفت أنه واسع العينين بصورة مخيفة . ثم جعل يشير بأصبعه السبابة نحوى فى استنكار شديد كأنه يندد بكذبى على الملأ:

- «إنت .. ممعاكش فلوس ؟»

- «إيه ؟ عجيبه يعنى ؟»

- «بس أنا من غير مؤاخذة متأكد إن معاك

فلوس !! ولمؤاخذة بقى : بنعمة ربك فحدث!»

قال ذلك مجتهدا أن يخفض صوته بقدر الإمكان . لويت بوزى فى قرف ، هززت رأسى ضجرا وغضبا :

- «حِل عنى بقى يا راجل انت .. مش معقول اللى بتعمله فىَّ ده !»

نكس رأسه قليلا ثم هب واقفا ، صاح فى الجرسون :

-«الشاى اللى نزل لى ده عندى يا منصور !»

ومضى إلى صندوقه المركون على ناصية ممر يخترق رصيف المقهى ويمتلئ بالكراسى ؛ لكن النظرة التى رمانى بها عند وقوفه شخصت فى عينى مؤكدة لى أنه واثق تمام الثقة من أننى أملك الآن فلوسا تكفى على الأقل لإقراضه مائة جنيه ، فهل تراه قد رآنى وأنا أقبض من الصراف ؟! إن شيئا لم يطرأ على مظهرى ليعطى وشاية بأنى تحينت فجأة وصرت

قادرا على الإقراض ، ولمن ؟ لشخص لا تربطنى به أية صلة على الإصلاق ، وقد غاب عن باله أنه ليس بالذى أضحى من أجله باقتطاع مبلغ كهذا من منحة هبطت على من السماء كما ينزل القطر على أرض شراقى . من فرط شعورى بالدهشة والعجب رحت أتذكر كيف واريت الأربعمائة جنيه فى عديد من الأكفان، وصورة الممثل فؤاد المهندس فى مسرحية سيدتى الجميلة وهو موتور يعد على أصابعه قائلا : قميص بست زراير . . وصديرى . . وچاكتة مقفولة . . إلخ ، فانفجرت برغمى ضاحكا كالمجنون . عندئذ جاءنى الجرسون بكوب ماء مثلج دون أن أطلبه ، وبدون أن أطلب أيضا رفع كسوة النار وقام بتعديل وضع الجمرات وتغيير المنطفأة منها فأحسست أنه يتلكأ لغرض فى نفس يعقوب . آنئذ زحف علينا ظل كثيف ، تبينت فيه شخص الفاكهى فاوى ، يحمل مشنة مصنوعة من خوص النخيل ، ارتصت فوقها حبات المانجو التيمور المبططة بصورة مغرية . وضع المشنة أمامى على الطقطوقة النحاسية

ثم جلس بجانبى قائلا للجرسون فى أريحية صعيدية متقنة :

- «ما توصى لنا على اتنين شاى فى الخمسينة حلوين كده عشان خاطر البيه!»

تجاهلته تماما ، مانعا عينى من النظر إليه أو إلى المانجو وقد شعرت بسخونة الدم تصعد إلى وجهى : هذا الفاكهى فاوى هو الآخر عمره ما فعلها ؛ فطوال أكثر من خمسة عشر عاما وهو يرانى كل يوم ولم يحدث أن عرض على بضاعة ، فما هو السر فى أنه اليوم - واليوم بالذات - يأتينى ليجلس بجوارى ويطلب شايا لى ، متأهبا للدخول معى فى مفاوضات ومساومات ؟ ترى هل تأكد هو الآخر من أننى أحمل فلوسا فى حافظتى وأننى اليوم فحسب دون ما مضى من أيام يرجى من ورائى خير ؟! ما أفظع الضيق الذى يكتم صدرى يجعلنى شاعرا بالمهانة . هاهو ذا الأخ فاوى يشعل سيجارة مارلبورو ، يشير بيده إلى المشنة :

- «شوية مانجه يستاهلوا بق سعادتك !

متنقيين بالواحدة من الجنينة رأسا !»

لم أرد ، ولعلنى كنت أبحث عن رد مناسب يحسم الموقف باختصار ودون صداع . .

- «بص حضرتك . .»

جعل يمسك واحدة بعد الأخرى يديرها أمام عينى كجوهرة فى يد صائغ ، لكننى لم أبص . لحظتئذ جاء الجرسون بالشاى ووضعه ثم صار يقلب فى المانجو باشتهاء واضح ، ويغمز لى فى إغراء الحريص على مصلحتى :

- «حلوين ! حلوين بجد ! إوعك تسيبهم ! اتساهل مع البيه يا فاوى ! دا البيه جدع وأخ عزيز !»

ثم أردف بجدية مفاوض فى مباحثات الجلاء :

- «إنت عاوز كام يا فاوى من غير لف ولا دوران ؟ عشان البيه ما يفاصلشى » .

عبر كمه الواسع امتدت ذراع فاوى تلوح نحو السماء :

- «يمين المصحف وربنا شاهد دول

تمنهم مائة جنيه بس انا زهقت عشان مراتى من غير مؤاخذه بتولد فى المستشفى وعاوز ألحق اروح لها ! هات ياعم تمانين جنيه ! بارك الله فيما رزق !»

صاح الجرسون فى حماسة :

- «عداك العيب ! حلو ! حلو بصراحة ! دا ولا شروة بلح رامخ !»

برغمى نظرت إلى المانجو ، كانت بالفعل قريبة من هذا التقدير ، لم أكن أفكر فى الشراء مطلقا ، فحتى لو أردت أن أبحبح على العيال بأكلة مانجو فلن تكون بمثل هذا المبلغ مطلقا وإلا ثار عيالى أنفسهم واتهمونى بالجنون ، سيقول أحدهم : «طب كنت اديهم لى للدروس الخصوصية» ، ويقول آخر : «طب كنت هات لى جزمة بدال البرطوشة دى» ، وستقول أمهم : «طب يا أخى كنت اديهم لى وأنا أملا بيهم التلاجة لحمة وفراخ» . كل ما كان يشغلنى بإلحاح شديد

هو : لماذا توقع فاوى - فى هذا اليوم بالذات دون ما مضى من أيام - أننى اليوم يرجى من ورائى بل وجاهز لدفع ثمانين جنيها بالتمام والكمال فى أكلة مانجو عابرة ؟! الأعجب من ذلك : كيف صار منصور الجرسون مقتنعا بأننى - بكل هذه البساطة - يمكن أن أدفع - اليوم - ثمانين جنيها حتة واحدة فى حين أنه - منذ يومين اثنين - اصطحبنى إلى صهره الترزى كى يضمنى عنده ليفصل لى سروالين بالتقسيط بواقع جنيهين كل شهر ؟! إننى أكاد أصاب بالجنون ، حتى الكلام لم أعد قادرًا عليه . سحبت آخر نفس ، نحيت المبسم جانبا ، وقفت ، دسست أصابعى فى الجيب الصغير سحبت حجابًا مطويا عدة طيات فى حجم علبة الكبريت ، فككته ، فردته ، لكى يتأكد الجرسون وفاوى أن هذين الجنيهين والنصف مقرر كل يوم هما كل ما أملك ، ثم اغتصبت ابتسامة مهيضة هززت بها رأسى هامسا فى حرج :

- «عن إذنكم» .

ومضيت مندفعا كالسهم المارق كأن قوة عاتية تدفعنى بأقصى سرعة إلى البيت . وحتى بعد جلوسى إلى مائدة الطعام كنت لا أزال أشعر بأننى لم أغادر المقهى بعد . وفيما أرفع كوب الماء فوجئت بزوجى مرتفقة مسند الكرسى المقابل وراحت تتمعن فى وجهى تتفرس فى ملامحى كأنها ترانى لأول مرة وقد أشرق على وجهها ضوء جديد طازج ذكرنى بها وهى فتاة فى فترة خطوبتنا ، كانت ملامحها قد ارتدت غلالة رقيقة من بهجة شفافة تشى بلحظات من المرح قادمة بعد قليل . قلت كأنى أبحث عن تفسير لتفرسها فىّ :

- «يظهر انى أكلت بشراهة ! مسحت !»

ضحكت ، وأيضا كانت ضحكتها جديدة أو هكذا خيل إلى لكنها ضحكة من الزمن القديم الجميل :

- «مش ده اللى لافت نظرى ! ألف هنا وشفا ! ياريت كل يوم تاكل بنفس كده ؟»

- «أمال إيه اللى لفت نظرك طيب ؟»

هزت رأسها فى حيرة ، انسحبت عن الكرسى

مقتربة من الأطباق الفارغة :

- «مش عارفه ! إنت النهارده شكلك متغير والسلام !»

-«للأوحش طبعا !»

- «بالعكس دى الحلاوة حتنط من عنيك ! فيها فرحة ورضا ! وفيها حاجة غامضة مش فاهماها ! أنا عاجناك وخابزاك ! ما تاكلش بنفس كده مع إن الأكل مش ولابد إلا إذا كنت مبسوط وبالك رايق !وكمان فيه حاجة زى ما تكون عايز تخبيها وعايز تقولها ف وقت واحد !»

شوحت بذراعى فى يأس وذهول ، لامستها برفق وأنا ماض إلى الحمام لأغسل يدى . وهروبا من نظراتها الثاقبة دخلت حجرة النوم تمددت على السرير محاولاً الانفراد بنفسى لأفكر بعمق فى ملابسات ما حدث ؛ إلا أننى فوجئت بزوجى تدخل حاملة كوب الشاى ، وضعته على الكومدينو ، ولتضمن له وضعا آمنا أزاحت حافظة أوراقى ثم تشبثت بها لمنعها

من الوقوع نظرا لضيق سطح الكومدينو . راقبتها فزعا من وراء قناة ظهرها النحيل ، ثم اعتدلت جالسا ممددا ساقى لأمسك بكوب الشاى . أفزعنى تعبير مفاجئ طرأ على وجهها حيث انطفأ الضوء على ملامحها لجزء من مليون من الثانية لكنه اشتعل فجأة كالتيار الكهربائى حين يعود عاليا بعد انقطاع . صار وجهها مثل الفانوس الملون ، كأن أصابعها وهى تلمس الحافظة قد أنبأتها بأنها حبلى على وشك أن تضع مولودا مبهجا ، ثم ابتسمت وتكرمش أنفها وهى تقول بنبرة تقطر حدسا واستبشارا :

- «يا اختى ! الشنطة دى مالها مكعبرة كده ومورمة ؟!»

ثم أباحت لنفسها أن تضغط بأصابعها تتحسس فيما هى ترمقنى بركنئ عينيها الساحرتين . أخيرا جلست على حافة السرير متعمدة أخذ ساقئ تحت إليتيها المكتنزتين وشرعت تفتح الحافظة بهدوء متعمد وعلى وجهها شمس ساطعة لم أستطع الحملقة فيها فخفضت عينى مستسلما ، لأرى فى الظلام صراف المؤسسة

يرمقنى بنظرة تفيض سخرية وتهكمًا واستهجانا ، وكنت أشعر آنئذ بحركة يد زوجى وهى تنزع الأكفان واحدا بعد الآخر فى غبطة وحبور كأنها استردت وليدها الذى دبت فيه الروح من جديد وها هو ذا عائد إلى حضنها ، وكنت أشعر كذلك بميلاد ليلة جديدة طازجة ، ربما خلت من كوابيس الهموم .

تمت

المعادى - صقر قريش فى 25-9-2001

سراديب الضوء

فرحة النجاح فى الحصول على الشهادة الابتدائية من مدرسة البلد لأول مرة فى تاريخها منذ إنشائها كمدرسة أولية ثم إلزامية ، بدأت تتراجع شيئا فشيئا فى دارنا ، داسها كابوس عملاق ، قدماه فى أحشائنا ورأسه تخترق سقف دارنا . ذلك أننا لا نكاد نجد قوت يومنا إلا بصنوف من هوان لا يحتملها بشر ، إلا أن أبى العجوز البالغ من عمره ثمانين عاما ويعول أسرتنا المكونة من اثنى عشر بطنا يحتمله ببطولة خارقة ، يمشى على قدميه صباح كل يوم ستة كيلو مترات - ومثلها فى العودة - ليركب القطار من محطة البكاتوش إلى مدينة قلين ليجول فى مقرات المحكمة والشهر العقارى وعديد من الإدارات

يخلص فيها أوراقا وطلبات والتماسات وعقودًا خاصة بمصالح ناس من أهل البلدة ليس لهم دراية بالإجراءات القانونية المتبعة وهو - أبى - يقوم بها نيابة عنهم وبتوكيلات رسمية نظير أجور تافهة ، رغم أن الأمر الواحد قد يكلفه عديدا من المشاوير جريا وراء أوراق يجب أن تنتقل من مكان لتعود من جديد إلى نفس المكان مما يشكل زادًا من الحكايات المثيرة ليسهر عليها أبى وعملاؤه فى مندرتنا كل ليلة ، حيث يبدو الانبهار والتقدير على وجوه العملاء الفلاحين بما يشى بالرغبة الصادقة فى تعويضه عن هذه الجهود الزائدة عن الأجر المتفق عليه ، لولا أنهم ليسوا يحملون نقودا فى كل وقت ، إنما هم يدبرون لكل أمر نقوده ببيع شىء من محاصيل القمح أو الفول أو الأرز أو الذرة أو حتى من بيض الدجاج وفائض الألبان والسمن والجبن القريش والضانى ، وهم يجدون بعض الحرج فى أن يعرضوا على أبى شيئا من هذا مكافأة له على تسجيل عقد أو تأجيل قضية أو فك

رهنية أو إعفاء ولد من الجهادية ، ولكن أبى بلباقته المشهودة يتكئ بكوعه الأيسر على المسند ويشوح بذراعه المبسوطة فوق ركبته اليمنى قائلا فى ابتسامة دمثة ونبرة صوت حكيمة إنه فى النهاية سيأخذ الفلوس ليشترى بها هذه الأشياء نفسها من الدقيق إلى الإدام ، وهكذا ففى الأيام التى تطول فيها الأزمة بين الطحين والطحين ، إذ يعجز أبى عن تدبير ثمن الطحنة : ست كيلات من القمح ونصفها من الذرة والشعير مع كيلتين من الأرز الأبيض وهى الكمية التى تكفينا لمدة خمسة عشر يوما ، نفاجأ بأن أمى قد تلقت فى السر ثلاث كوبات من الأرز - حوالى ثلاثة كيلو جرامات - من دار الحاج عقل ، أو بطتين كبيرتين من دار بقوش ، أو طاجن لبن من دار البكاروة ؛ فكل هؤلاء عملاء أبى ، أما ورقة الدخان اللف أم نص فرنك التى يحتاجها أبى كل ثلاثة أيام ، وباكو الشاى وقرطاس السكر فهذا وذاك مقدور عليه ينجح أبى فى تدبيره من محمود خليفة صاحب

دكاكين البقالة الذى يعتبر أهم واحد فى عملاء أبى ؛ إذ إنه يمد أهالى البلد بأصناف البقالة وبالسلفيات النقدية على ذمة المحاصيل بموجب كمبيالات عليها نسبة من الفوائد ؛ ولذا فإنه فى كل أسبوع يسلم أبى كمبيالات جديدة فات ميعاد استحقاقها وعلى أبى أن يرفع بموجبها قضايا فى محكمة قلين ليستصدر أمر أداء بالدفع أو بالحجز على ممتلكات المدين لبيعها بعد حين فى مزاد علنى ، فى العادة لا تصل القضية إلى هذه المرحلة ؛ لأن الفلاح الذى ورث كره الحكومة ومقت جميع مندوبيها وممثليها ما إن يتسلم الإعلان من محضر المحكمة حتى يبادر بالمجىء إلى أبى للبحث عن حل عاجل بالتراضى .

كل عملاء أبى وعلى رأسهم محمود خليفة نفسه وهو من أكابر الأعيان فى بلدتنا ، وكذلك معلمنا الأول محمد افندى ريشه ، وناظر المدرسة الشيخ عبد البارى عباده ، كلهم باركوا لأبى على نجاحى فى الحصول على الابتدائية ، بعضهم بارك

بنبرة لا تخلو من الحسد ، إلا أنهم جميعا - ربما بغير إرادة منهم - ضخموا عملقة الكابوس بكلامهم الكثير عن المصاريف الباهظة للمراحل التالية من التعليم ، حتى صرت أنام على ظهرى - فى الليل أو فى النهار - محاولا الوصول إلى رأس هذا الكابوس العملاق لكى أضع نفسى تحت عينيه لعله يرحمنى ويرفع قدميه عن صدرى : لقد أكدوا جميعا أن حظى تعس ما فى ذلك شك ، فكونى حصلت على الشهادة الابتدائية بتفوق وبتقدير متقدم لن يشفع لى فى استكمال تعليمى الذى أحلم به ؛ إذ إننى سأنتقل إلى المدينة ، يعنى يلزمنى مسكن بإيجار شهرى ، وملبس نظيف لا يقل عن بدلة وطربوش وقميص أفرنجى وحذاء ، يلزمنى زوادة قوامها خبز وغموس لثلاث وجبات فى اليوم ، ومصروف يد لا يقل عن ستين قرشا كل شهر بواقع قرشين كل يوم أشترى بها غموسًا وكراسات للواجب ، ناهيك عن الرسوم المدرسية الكبيرة التى لابد للطالب من أن يسددها قبل بدء العام الدراسى

بوقت مناسب ، وهل المسكن فى المدينة لا يلزمه فرش وغطاء وصندوق وحقيبة ؟ وهل السفر إلى المدينة لا يلزمه أجرة ؟ من أين يأتيك كل ذلك يا مسكين ؟ هل تظن أنك على الحجر وحدك ؟ حتى لو كنت الابن الوحيد لأبيك هذا فإنه لو قطع نفسه شغلا فلن يفى بمصاريفك ، فما بالك وأنت واحد من عشرة أبناء غير الأم والأب ؟ أمرك لله إذن يا ولدى ، خير لك - اسمع كلام أبيك - أن تبحث لنفسك عن شغلة بالابتدائية فتضرب عصفورين بحجر واحد : تساعد أباك على المعايش ، ويصبح فى جيبك فلوس تدبر بها مستقبلك ، وإن كنت متمسكا بالتعليم ذاكر من منازلهم وخذ ما تشاء من الشهادات . .

يزداد الكابوس ثقلا وقتامة من ليلة لأخرى مع تواتر المقترحات التى يتبادلها عملاء أبى فوق الدكك فى نور مصباح الجاز نمرة عشرة المعلق فى السقف بجنزير ذى رمانة متحركة تساعده على الهبوط والصعود حسب الحاجة ، ويقال فى أدبيات

عائلتنا إن هذا الجنزير وغيره من آثار لا تزال باقية فى دارنا من خرج السراى الخديوية ؛ إذ إن جدى لأبى - هذا الذى يطل من برواز صورته على الحائط بوجه سمح بشوش مدور كالقمر تحت الطربوش القصير تحيط به هالة فضية من لحية بيضاء جميلة - كان يعمل فى تلك السراى خازنا لطعام الأسرة الخديوية قبل حوالى أربعين سنة مضت . فى ذلك الضوء الشاحب المخنوق ، حيث تنعكس ظلال الجنزير وقاعدة المصباح فوق وجوههم ، كانوا يبدون لى ككائنات غريبة مرسومة بألوان الباستل منذ آلاف السنين ، وكان الهواء المتدافع من شبابيك المندرة المتقابلة يلعب بالمصباح فى رواح ومجىء فيلتبس على الأمر فى قعدتى على الدكة البعيدة القريبة من باب الدهاليز ، فلا أعرف إن كانت هذه الكائنات تتحرك بالفعل أم أن ضوء المصباح هو الذى يحركهم فيكشف عن وجوههم تارة ويرمى بهم فى الظل تارات ! حتى أصواتهم الطيبة الراغبة حقا فى

تقديم العون كان يخيل لى أنها آتية من الحقول البعيدة جلبتها هذه الرياح التى تلعب بالمصباح .. أحدهم يقترح أن أشتغل بائعا فى المقر الرئيسى لمحلات محمود افندى خليفة .. الحاج بقوش يلوح بعلاقاته الطيبة بتفتيش وسية محمد على توفيق ويتعشم أن تكون أمى قد دعت لى فى ليلة قدر حتى تنجح وساطته فى تعيينى كاتبا للأنفار فى الوسية ، حاجة نظاكة وعمل نظيف محترم سأركب فيه حمارا بسرج وأحمل شمسية وأتأبط دفترا مطويا وأرتدى قبعة من الخوص أو طربوشا وبدلة لو أردت .. أبى يصارحهم - طلبا للمشورة - بأن أحد قضاة محكمة قلين الجزئية ممن يأنسون إليه سأله إن كان يعرف ولدا مدردحا يجيد القراءة والكتابة ليشتغل عنده شبه سكرتير خاص له - لاحظت أن أبى قد ابتكر هذا التعبير : شبه سكرتير ، فور اللحظة ليستبدل به كلمة : خادم خصوصى - فماذا فيها يعنى لو أن أبى أهدانى إلى هذا القاضى ؟ ألا يكون بذلك قد خدم القاضى

وخدمنى وكسب بجميله هذا شخصية مهمة سوف تنفع لاشك فى خدمة مصالح أهل البلد ؟ . . .

تغيب عن أذنى تعقيباتهم بل تختفى الوجوه من عينى إذ يخيل لى لحظتئذ أننى اصطدمت بنظرات الكابوس العملاق هابطة فوقى من عل ، وأننى شاهدت - للمحة خاطفة - صورته فإذا هو بقرنين فوق الأذنين معقوفين لأعلى ، وعلى حنكه ابتسامة كفتحة كهف سحرى مخيف . رحت أرتعد بشدة أزداد انكماشا وتكوما فوق ركبتى المرفوعتين ، إذ بسطت فوقهما ذراعى وأرحت رأسى فوق يدى وقد اعترانى شعور خارق بأننى قادر على الطيران بل هأنذا أطير بالفعل محلقا فى الفضاء تحف بى عشرات من سراديب ضوئية على شكل قراطيس من الضوء تضيق كلما تباعدت ، وأن سردابا منها قد يوصلنى إلى عرش السماء حيث الحضرة الإلهية وحيث يتعين علىّ أن أجثو راكعا طالبا من الله أن يوقف هؤلاء القوم عن الخوض فى تحديد مصيرى على هذا النحو الذى لا يرون سواه .

لكنه سبحانه - جل فى علاه - كفانى مشقة الصعود المستحيل وكان لطيفا وأقرب من حبل الوريد ؛ إذ بينما المقترحات المصرية تترادف ليلة بعد ليلة ويلحقها بعض تعديلات تذهب بى إلى المحلة الكبرى للالتحاق بالعمل فى مصانع الغزل والنسيج ، ويا حبذا لو كفر الدوار التى لم تزحم بعد بالعمال ، إذا بمعلمى محمد افندى ريشة يقتحم المندرة عقب صلاة العشاء . كان حميما بالنسبة لجميع الآباء ، ومؤثرا بقوة ، حيث الناس فى بلدتنا يرهبون العلم والعلماء ويبجلون المعلمين كأنهم بالفعل ورثة الأنبياء . بسط محمد افندى فكرته فى حسم وإيجاز ، وفى حزم يشبه الأمر حصل على الموافقة فى الحال : لقد تبنى دفعتنا هذه التى حصلت على أول شهادة ابتدائية من مدرسة البلد بالمجان ، وقد قتل نفسه ليل نهار فى المذاكرة لهم بإخلاص وتفان حتى نجحوا جميعا بتفوق على المنطقة ، وحرام فى رأيه أن تبتر مسيرتهم التعليمية بسبب الفقر ، سيما وأن من

بينهم ولدان مثلى خلقوا للتعليم ، وبناء عليه فإنه نظرًا لعلمه بفقر آبائنا جميعا قد اختار لنا تعليما مختصرا يؤهلنا لوظيفة محترمة ومقدسة : المعلم ، لسوف يأخذ أوراقنا ويسافر على نفقته إلى مدينة دمنهور ليقدمها لمعهد المعلمين العام هناك ، وهو معهد بلا مصاريف باهظة اللهم إلا قروشا ضئيلة كرسوم التحاق يمكن تدبيرها ، مدة التعليم فيه أربع سنوات فقط ، وأما نفقاتى الخاصة فإننى طوال الإجازة الصيفية يمكن أن أشتغل كاتب أنفار فى الإصلاح الزراعى أو حتى نفرا وأن أدخر أجرتى للإنفاق منها على العام الدراسى فما رأيكم فى هذا يا رجال ؟ . .

أومأوا جميعا موافقين فى امتثال ودعوا له بطول العمر وعمار البيت . .

إلا أنه قبيل انصرافه فجّر قنبلة مسيلة للدموع بقى دخانها فى عتبة دارنا لأيام عديدة حيث يرتفع وينخفض لدى كل حديث نتبادله : ذلك أن أمر تعليمى وقد وصل إلى أدنى مستوياته اتضح أنه

ليس يخلو من تكاليف مطلوبة فورا ؛ فهناك ورق يجب أن يتم تجهيزه من الآن : سحب مستخرج من الشهادة الابتدائية من المنطقة التعليمية .. التقاط ست صور فوتوغرافية لوجهى ، ولابد لإنجاز هذه وتلك من السفر إلى كفر الشيخ العاصمة .. سحب استمارة التحاق من المعهد فى دمنهور يدفع لها رسوم هى بالقياس العام قروش ضئيلة لكنها بالنسبة لى تعتبر باهظة وخاصة إذا أضيفت إليها أجرة السفر إلى دمنهور وكفر الشيخ . بحسبة دقيقة استهلكت برية قلم كوبيا وفرخ ورق ، حيث أعيد التفقيط عدة مرات وفى كل مرة نختصر عدة مليمات من مشاوير سنقوم بمشيها بدلاً من الركوب ، اتضح أننا نحتاج إلى مئتين وخمسين قرشا لتغطية نفقات عملية التقديم لمعهد المعلمين العام ..

عندئذ رمى أبى بالقلم على رخامة الترابيزة البيضاوية الموروثة عن جدى ، وتذرع بالصبر والحكمة ليعتقل انفعاله لكن الألم كان يعتصره وهو يقول :

- «يا ولدى هذا تعليم بالإكراه ! سبحان الله والحمد لله اللهم لا اعتراض ! أنت من بيت علم على امتداد عدة أجيال والدليل على ذلك ثلاث مكتبات كبيرة فى دار العائلة لا يوجد نظيرها فى أى بلد ! عمك شيخ أزهر سابق وعمك الآخر منشد صييِّت خاص بسراى أفندينا ! جدك أحد نظار الخاصة الخديوية تعلم فى استانبول وباريس ! لكن الحياة انقلبت رأسا على عقب ! صرنا فى الحضيض بدون مناسبة بدون ذنب جنيناه ، لكنها لعبة الأيام وغدر الزمان وأضاليل السياسة ! أنت تعلم أننى أخذتك من يدك وألحقتك بالكتاب لتحفظ القرآن ثم ألحقتك بالمدرسة فى حين كان الخفراء النظاميون يهاجمون الدور والحقول للقبض على عيال الفلاح لإلحاقهم عنوة بالمدرسة تنفيذًا

لخطة طه حسين فى جبرية المرحلة الإلزامية ليصبح كل أفراد الشعب على دراية بالقراءة والكتابة ! يشاء السميع العليم أن من أجبروا على دخول المدرسة دون إرادتهم هم الذين يملكون القدرة على الإنفاق فى استكمال التعليم أما أنت الراغب فيه حقا والمتفوق عليهم لا يريد لك الله أن تتعلم !! لابد من أن له فى ذلك حكمة فامتثل يا ولدى لمشيئته وأمرك إلى الله ! وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم! وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ! الله معك على كل حال !»

ثم هب واقفا فوق الكنبة بالصديرى فوق الفانلة أم كُم طويل واللباس الدبلان أبو دكة ؛ فبدا رفيع الساقين ناحل الجسد تعيسا مقهور الملامح . وفى اللحظة التى كنا - أمى وأنا - نتساءل فيها عن سر وقوفه المفاجئ انطلق صوت أذان العصر من مسجدين

يحصران دارنا . عندئذ هتفت أمى من قلب موجوع محسور :

- « الله أكبر على من طغى وتجبر !
الرحمة من عندك يا كريم يا رسمال الفقراء !»

ثم لكزتنى فى جنبى فيما هى تنهض واقفة بصعوبة ، أما أبى فراح يقيم الصلاة بصوت مرتفع فيه جدية وحماسة ، ثم أتانا صوته عبر باب الدهليز يقرأ سورة القارعة كأنه ينتحب ، كأنه متهم فى جناية ويدلى بأقواله أمام قضاة عدول . قالت أمى وهى جالسة على بسطة السلم الخشبى ذى العرائس المخروطية :

- «صلاة أبيك دائما مرعبة ! دائما حراقة ! دائما تبكينى وتقطع قلبى !»

وكنت على يقين بأنها تقول ذلك لتبرر انخراطها فى البكاء المكتوم رغم عنف دموعها التى كانت تقفز متطايرة كقطرات الزيت المغلى عند الطشة فتصيب وجهى بلسع حارق . فى تلك اللحظة صرت على

استعداد تام للتنازل عن كل شيء ، بل كرهت التعليم ولعنت أباه وأبا الشهادة كلها . يبدو أننى دون أن أدرى قلت كلاما كهذا أو قطع منه لأن الارتياع نفخ ملامح وجه أمى فأوقف دمعها فى الحال وتعطل انهماره على جسر ابتسامة شاحبة لكنها أضاءت وجهها وهى تمسك بيدى وتغمزها طالبة الهمس فى أذنى :

– « روح لسعيد النشرتاوى قل له تعال كلم أمى !»

اندهشت :

– «ماذا تريدين من سعيد النشرتاوى ؟ لم يبق إلا الغنَّام ؟!»

– «افعل ما قلته لك !»

قالتها بجدية وحسم ، ثم استدركت :

– «لا تجعل أباك يلحظ شيئا ! سأفتح لكما باب الحارة فلا تدخل من باب المندرة !»

دار سعيد النشرتاوى لا يفصلها عن دارنا سوى دار الخطيب ودار ابن عم لى ، ولكننى تلكأت فى

الذهاب حتى أفهم سر علاقته بما نحن فيه الآن . إنه ليس بالشخص الذى يمكن لأمى أن تقترض منه مائتين وخمسين قرشا على فرض أنها تستطيع أصلا سداد دين كهذا حتى ولو على المدى الطويل . ولحظة أن كاد الشك يفرك قلبى أشرقت فى دماغى صورة ستى نفيسه أم أمى المقيمة لدى أهلها فى بلدة فوة منذ أن رحل زوجها - جدى - قبل ما يقرب من عشرين عاما . ستى نفيسة مدبرة ، شاطرة ، كلما زارتنا فى البلد تحرص على مقابلة سعيد النشرتاوى ، إنه غنام ، ومراحه لصق دارنا من الخلف يمتلئ بقطيع كبير من الأغنام يدوشنا طوال الليل مأمأة ونطحا وهياجا مثيرا تخجل من صوته النساء ويدارين وجوههن حين يسمعنه ، ينضح المراح على دارنا رائحة الروث المشبع برائحة الضأن . الآن فحسب تذكرت أن ستى نفيسة تملك فى حوزة سعيد النشرتاوى عشر نعجات سمينات كانت فى الأصل أربعا ثم تكاثرت بالتوالد ، والنظام بين ستى والغنام أن يحتفظا بالإناث ويبيعا الذكور بعد أن تصبح خرفانا وكباشا على أن يقسم

الربح مناصفة بينهما . ساءلت نفسى : هل تجرؤ أمى على بيع واحدة من الغنمات دون علم ستى ؟ . .

اتضح أن أمى كانت على علم بأن إحدى النعجات ولدت منذ حوالى شهرين وذلك أمر لا يمكن إنكاره لأن النعجة الوالدة تمشى وخلفها حملانها ، مع العلم بأن نعجات ستى نفيسة مميزة بعلامة يتم حفرها بالسيخ المحمى فى بطن الساق ، ثم إن أمى تراقب القطيع عند الخروج من المراح وعند الدخول ، وتستطيع فى الليل أن تلقى نظرة على المراح من سطح دارنا ولو رفعت المصباح بيدها لتمكنت من تمييز غنمات أمها .

أقعى سعيد أمام أمى فى الدهاليز وقال بصوت خفيض يشى بأنه متآمر أصيل ، وبنبرة تنم عن عقيدة راسخة :

- «النتايات لا يمكن التفكير فى بيعها ! هذا شؤم والعياذ بالله ! لكن من حسن الحظ عندنا حُولى واحد (يعنى حمل) عمره ثلاثة أشهر ولكن بيعه ليس يستحق

مشقة السفر إلى سوق بلدة العجوزين !»
حملقت أمى فى وجهه بضراعة :
- « ضمينك النبى يا سعيد ! لابد من بيع الحُولى ! الولد يا قلب أمه مستقبله مرهون على جنيهين ونصف ! أيرضيك أن يضيع مستقبله فى شربة ماء ؟ نحن ما صدقنا أن ولدا من عيالى مشى فى التعليم وربنا وفقه وصار من الناجحين !»

وضح أن سعيد النشرتاوى تأثر جدا فعض على نواجذه وراح يفكر فى عمق ، فى الحق لقد عذرته فى تردده لأن مشوار العجوزين سمج تضج فيه الحمير من كثرة القلاقل وضيق المدقات لمسافة تزيد على عشرة كيلو مترات . .

أخيرا قال سعيد كالمغلوب على أمره :
- «نفرض أننا بعنا الحُولى ! كم ثمنه ؟ أربعة جنيهات مثلا بالكثير لو جبره السوق ؟ سآخذ منها جنيهين فيبقى . .»
- «يا سيدى ما تقوطعشى ! إن جاب

أربعة جنيهات خير وبركة ! سأتصرف أنا في نصف الجنيه الباقى حتى لو استلفته منك لحين عودة أمى ! اتكل على الله أنت واطلع السوق بالحُولى وربنا سيكرمك من أجل خاطر هذا الولد الغلبان !»

أومأ برأسه فى امتثال :

- «ماشى ! سوق العجوزين يوم الثلاثاء يعنى بعد بكره ! آخذ المحروس معى على الركوبة ونتكل على الله من أدان الفجر !»

- «ما لزمة الولد ؟!»

- «واحد من طرفك يحضر البيع والشراء !»

- «يا سيدى العملية فى بيتها !»

- «رجله على رجلى ! الأصول أصول !»

- «تروح معه يا ولد ؟»

- أروح طبعا !»

ليلتان لم أنم فيهما ، لقد عاينت الحمل المرشح للبيع واحتضنته كتميمة مقدسة ، احترمته جدا واعتبرته منقذى من الضياع وكدت آخذه معى إلى الفراش . كنت أغمض عينى منطرحا على ظهرى وسط إخوتى فى الخزانة القبلية ، ينفصل دماغى عن جسدى ويصعد محلقا فى السماء ، يتمعن فى سراديب الضوء الشبيهة بالقراطيس أتخيلها موصولة بعرش السماء الذى أقرأ وأسمع عنه كثيرا ، أحاول أن أعرف أيها الأقصر والأقرب فأراها قد حاصرتنى فأرتعش بلذة ورهبة متخيلا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى ليلة الإسراء فأردد بصوت يطن فى صدرى كقرع الطبول : يا رب ! يا رب ! يا رب ! ثم يثقل رأسى شيئا فشيئا وأشعر بقلبى يرتفع ثم يهبط فى الحال فأرانى فوق الأرض أفنديا معتبرا محترما يمشى بوقار متأبطا حقيبة ويمر على تلاميذ المدرسة فيقفون رافعين أيديهم إلى جوار آذانهم وأنا أومئ لهم برأسى وأرد على تحيتهم بابتسامة وقورة حانية . من مشهد كهذا انتزعتنى قرصة موجعة ، انتفضت جالسا فإذا بأمى

توقظنى لكى أتسلل إلى الدهاليز كى أغسل وجهى وأغير ثوبى وألحق بسعيد .

ركب سعيد فوق الحمار آخذًا الحَمَل فى حضنه وركبت أنا وراءه ممسكا طرفى البردعة بيدى . صرنا نركض فى فضاء داكن ، وكانت الأرض الزراعية حوالينا أشبه براقصة غانية تخلع ثيابها قطعة فقطعة إلى أن تعرت تماما تحت وهج الشمس المشرقة واكتسبت المرئيات كلها لونًا نحاسيا ساخنا ، والحمار يبرطع كالرهوان الطفشان الطهقان كأنه يريد أن يتخلص منا ومن حياته حتى خيل لى أنه سيرمى بنفسه فى ترعة الهويس المارة بشباس الشهداء . .

فى الثامنة وبضع دقائق كنا فى قلب سوق العجوزين ومنه إلى سوق الماشية . تخيرنا مساحة فارغة وتقرفصنا واضعين الحمل أمامنا وقد أمسك سعيد بحزمة برسيم وراح يحشرها فى حنك الحمل ليأكل . ولكن الحمل كان مسدود النفس فى غاية من السأم والإرهاق وانحراف المزاج ربما بسبب انتزاعه من أمه . انطرح على جنبه رافعا رأسه ينظر إلى هذا

المهرجان المرتج من حواليه : نعير ونهيق وصهيل ومأمأة ونباح ، نداءات وعراك ومشاحنات وأيمان مغلظة تتطاير فى الهواء بغير حساب ، حلفان بالطلاق وإلحاح فى طلب الصلاة على النبى تتخلل الحديث بين كلمة والتى تليها . .

توقف أمامنا كثيرون ، بعضهم تقرفص وجسَّ الحمل بيديه فى خبرة ثم نهض ومشى ، بعضهم سأل : بكم؟ فرد سعيد على الفور : بالصلاة على النبى ، فيقول بغير حماسة : اتنين جنيه ، فيهز سعيد رأسه فى أسف : يفتح الله ؛ فيمضى من فاصل دون تعليق . تكرر هذا المشهد كثيرا ثم انقطع الوقوف أمامنا تماما . .

الوقت يجرى بسرعة مذهلة . وأنا الذى طالما ضقت ببطء إيقاع الوقت صرت الآن أتشبث بالزمن أتمنى أن لو استطعت أن أقبض عليه بأسنانى حتى لا يمر أو على الأقل يتمهل قليلا حتى نبيع هذا الحَمَل ، لقد صار مربوطا فى قلبى بحبل ، فإذ يغمض عينيه ويريح رأسه على ساقيه تنسحب الحرارة

من كل جسدى وأروح أهذى دون أن أفتح فمى : إنه يجب أن يقف على قدميه ويأكل ، إن مستقبلى صار معلقا به ولابد من بعث الحرارة والحيوية فيه إلى أن يتم بيعه ، إلا أنه يكيد لى كيدًا فلا يتحرك وإن كانت بطنه تعلو وتهبط . أنحنى عليه ، أتحسسه ، أستحلفه بالله أن يقف ويمأمئ ، أكاد أبكى بحرقة لولا خشيتى من نظرات سعيد التى أشعر أنها توشك أن تتهمنى بجلب النحس فى هذا المشوار التعيس . راحت الرغبة فى البكاء تتفجر فى صدرى كالبراكين المدمدمة . تربعت على الأرض منكسا رأسى مغمض العينين ، تحيط بى سحب دكناء قاتمة فى سماء تعج بالرعود ، تتصادم السحب كالجبال الزاحفة تتناطح كالخراف تنثر شواظا من لهب وبوارق ، شعرت أن جميع الطرق إلى عرش السماء أغلقت تماما . وحين لكزنى سعيد لكى أفيق وأنهض أحسست بكثير من العدوانية فى أصابعه ، وإذ فتحت عينى كانت أرض السوق شبه خالية ، وثمة صوت يؤذن لصلاة العصر ، وسعيد ينحنى على الأرض

ليرفع الحمل جثة هامدة ، يطرحها على ظهر الحمار ثم يقفز راكبا يرمقنى هاتفًا بحنق : اركب . .

ركبت وأنا بدورى جثة هامدة . ما إن صرنا على الطريق الزراعى حتى مال سعيد برأسه إلى الوراء هاتفا بأسف ومرارة :

- «نرمى جثة الحُولى أم نرجع بها لكى تشوفها أمك بعينيها ؟! الأحسن أن نرجع بها !»

بربشت بعينى من خلل الدموع الهاطلة . لدهشتى فوجئت ، نعم فوجئت بأن الجو صحو والشمس حامية ، وإذن فليس هناك سحب دكناء قاتمة تبرطع فى الفضاء كجبال سائبة تتصادم لتلقى على الأرض حمما ، فبدا لى ذلك اكتشافا عظيما يهدهد القلب الكسير .

المعادى - شارع النصر ٣١ 5-11-2001

الفهرس

صدر مؤخرا عن (أصوات أدبية)

أشياء تخصنا

نجحت مؤامرتى مغامرتى بعون من الله وتوفيقه حيث تم الأمر فى سرية تامة. طوال فترة التدابير لأكثر من عشرة أيام كنت أشعر من حين لآخر بشىء من الخسة فى سلوكى هذا ، إلا أننى كنت مصرًا على المغامرة كمنفذ وحيد للتنفيس والتمرد ، وهكذا استطعت إخماد الخبر فى منبعه فلم يصل إلى علم زوجى وعيالى أن المؤسسة الحكومية التى أعمل بها موظفا فنيا منذ تخرجى فى كلية الفنون التطبيقية سترد إلى جميع العاملين فيها مبالغ لا بأس بها ، قيل إنها فروق الضرائب التى كانت تخصم من مرتباتنا بطريقة عشوائية ثم اتضح فى نهاية العام المالى على ضوء اللوائح أنهم كانوا غير محقين فى خصمهـــا .





الشركة الدولية للطباعة

الثمن: جنيهان